المشرق

اللُّغات واللّثغات

لحضرة الكاتب العالم المحقّق والباحث المتفنّن المدقّق الاب انستاس الكرملي

لا يجهل احدٌ ما للعربيّة من السَّعة وكثرة المترادفات وتعدد الكلمات لمعانٍ لا يفصل بعضها عن بعض الّا فاصل في نهاية الرقّة والدقّة والذي اوجب ذلك تسلُّط عوامل شتّى وتغلّب عوامل مختلفة انهالت عليها من جميع قبائل العرب وبطونها فاوصلتها الى المبلغ الذي تراها وصلت اليه

واعلم يا هذا ان لتلك العوامل قواعد وضوابط فاذا ما توفّق الاديب الى معرفتها تبدّدت له حينئذٍ ظلمات كانت قبل ذلك دامسة. واهتدى باعلام كانت آثارها في طريقهِ الى ذلك اليوم طامسة دارسة. وقبض على اعنّة شوارد. كانت لهُ الى ذلك العهد أوابد. ومن هذا القبيل. معرفة اللغات واللثغات عند كل قبيل. وقد رأيتُ جماعة من اللغويين. والنحاة المبرّزين. قد تعرّضوا لهذا البحث الجليل في مواطن متعددة من مؤلّفاتهم الّا اني لم أجد من عقد لها بابًا وجمعها كلها في فصل واحدٍ. او ذكرها في سِفر قائم براسهِ. وبعض هذه الانماء لهذه اللغات واللثغات غير مذكورة في المعاجم اللغويّة. ولهذا بعد ان نقّرتُ عنها في كُتب مختلفة لمدة انيّة جمعتها في هذه النُّبذة افادةً لابناء هذه اللغة الشريفة ووقوفًا على اسرار اسباب اتساعها وقد سردتُها على حروف المعجم ليسهل على الباحث طلبها. ثم عقدتُ بذيل كل مادّة اسم المَوْرِد الذي وردتهُ جريًا على عادة

المحققين من ابناء هذا الزمان. فاقول وبالله استعين وعليه التكلان:

١ (الارتضاخ) مصدر ارتضخ. قال في التاج: «يقال: هو يرتضخ لُكْنَةً عجميّةً اذا نشأ معهم اي مع العجم يسيرًا ثم صار مع العرب فهو ينزع الى العجم في الفاظ من الفاظهم لا يستمرّ لسانُهُ الى غيرها ولو اجتهد. وفي حديث صهيب: كان يرتضخ لكنة روميةً. وكان سلمان [الفارسي] يرتضخ لكنةً فارسية. وكان عبد بني الحسحاس يرتضخ لكنةً حبشيّةً مع جودة شعرهِ » اه

٢ (الاستنطاء) في لغة سعد بن بكر وهُذَيل والازد وقيس والانصار: تجعل العين الساكنة نونًا اذا جاورت الطاء. «كأنطى» في «أعطى» (المزهر ١: ١٠٩)

٣ (التَخضيج) قال الجد: [هو] شبه التضجيع في الكلام المُسنَد. وفي نسخة «المُبتدإ» بدل المسند (التاج). وفي محيط المحيط للبستاني: خضَّجَ الكلام: قصّر فيهِ ومال بهِ قبل تمامهِ وهو شبه التضجيع في الكلام المبتدإ مأخوذًا من الخضج وهو الناحية. اه. ولم اجد في ما بيدي من الكتب أوفى من هذا التعريف ولا اوضح منهُ. فهل من اديب يُوفّي حقَّ هذه المادة؟

٤ (تَضَجُّع قَيس) وفي المزهر (١: ١٠٤) تضجُّع قُرَيْش وهو غلط طبع لم يُصحح والاصحّ ما اوردناه كما ذكرهُ صاحب خزانة الادب (٤: ٥٩٦) لان العرب تقول: انهُ لم يكن لقريش عيب في الكلام. والمأخوذ من سياق هذا النصّ ان التضجُّع من عيوب اللغات فهو اذن غلط. واما ما هو تضجُّع قيس فلم يشرحهُ لا صاحب المزهر ولا صاحب خزانة الادب وان ذكراهُ. واما اللغويون فلم يتعرَّضوا لذكرهِ ابدًا. الّا اني اظنُّ انهُ كَسْرُ اوَّل حرفٍ من حروف المضارعة الّا ان يكون اولهُ ياء فلا وهو الذي سمَّاهُ صاحب المزهر باسم ثانٍ وهو «كَسْر قَيس وأسد» (١: ١٠٤) والذي سمَّاهُ جمهور اللغويين بالتَلْتَلَة. فاطلب هذه اللفظة. والتضجُّع غير الإضجاع وهو: «ما وقع في اوساط الكلم» [من الكَسْر] نحو باء الإبِل». (بحرفهِ عن مفاتيح العلوم ص ٤٥)

٥ (التَضجيع) ذكرهُ اصحاب المعاجم اللغوية في مادة ض ج ع ولم يفسّروهُ لا في موطنهِ ولا في غير موطنهِ

٦ (تلتَلَة بَهراء) فسَّرها ثعلب في امالِيهِ بكسر اوائل الافعال المضارعة

(المزهر ١ : ١٠٤) وقال الزبيديُّ في مادة طبق : « لَتَركَبُنَّ طبقًا عن طبقٍ . قرأ ابن عباس وابن مسعود رضه : « لَتِرْكَبُنَّ » بكسر التاء . وهي لغة تميم وقيس واسد وربيعة يكسرون اول حرف من حروف المستقبل الَّا ان يكون اولهُ فانهم لا يكسرونها . اهـ .
وقال ايضًا في مادة ت ل ل : وتلتلة بهراء كَسْرُهم تاء تِفْعَلُون . وحكى بعضهم قال : رأيتُ اعرابيًا معلّقًا باستار الكعبة وهو يقول : « ربِّ أَغْفِرْ وأَرْحَمْ وَتجاوَزْ عمَّا تِعْلَمُ » . وقرأ يحيى بن وثّاب : « ولا تِرْكَنوا الى الذين ظلموا » بكسر التاء . ومثلهُ : « مَا لَكَ لا تِئمنَّا على يوسف » . وكذلك « فتِمَسَّكم النارُ » . . . وقال ابو النجم :

اقبلتُ من عند زيادٍ كالخَرِفْ تخطُّ رِجلايَ بخطٍّ مختلِفْ
وتِكْتِبان في الطريق لامَ أَلِفْ

هكذا بكسر التاء . اهـ

٧ً (التَمَعُّد) هو الرَسْوُ . ولم ينبّه على وجودها احد من اللغويين لا من المحدثين ولا من الاقدمين

٨ً (التيسيَّة) يُقال : فلان يتكلَّم بالتيسيَّة : اي بكلام اهل ذلك الجبل وهو جبل باليمن (عن الميداني في شرح « تِيْسي جَعارِ » ١ : ٩٣) وقد ضبط صاحب فرائد اللآل كلمة تيس (اسم الجبل) بكسر التاء . كما فعل الميداني . واما ابو محمَّد الحسن الهَمْدانيُّ فقد ضبطها في كتابهِ « صفة جزيرة العرب » بالفتح بلفظ واحد من التُيُوس (ص ٦٨ , ٧٢ , ١١٢ , ١١٣ , ١٢٥) وكذا فعل ياقوت الحموي في كتابهِ مراصد الاطلاع (ص ١٠٢ من الطبعة الهنديَّة الحجرية) . والتاج في مادة ت ي س

٩ً (الخَزْم) « هو زيادة حرف في الكلام لا الذي في العروض كقوله : ولا إليها بِهِمْ ابدًا دواءُ . وقوله : وَصَاليات كَكَمَا يُؤَثْفَيْنَ . قال : وهذا قبيح لا يزيد الكلام قوةً بل يقبحهُ » (عن المزهر ١ : ١١٠)

١٠ً (الرُتَّة) قال في التاج : « عجلة في الكلام وقلَّة اناءة . وقيل : هو ان يقلب اللام ياء » . . . اهـ

١١ً (الرَسْوُ) « روى القاضي التنوخيُّ عن ابي صالح . قال : انشدني ابن الكلبي لحاتم :

إِلْهُهُمْ رَبِّي وَرَبِّي إِلْهُهُمْ فأَقْسَمْتُ لا أَرْسُو ولا أَتَمَعَّدُ

الرُّسوُ : ان يقال للصقر : زُقر ولِسَقر زَقر . وللصراط : زُراط . وللصقب زَعقب . (وبنو الصعقب من نهد حلفاء بني جناب من كلب) . وسمعتُ ابا اسماء وغير واحدٍ من طيّ يقول : « اللهم نعوذ بك من شرّ زَقر » . وهذا كلام معد فلذلك قال : لا أُتمَّدُ » . اه بحرفهِ عن كتاب مجموع خمسة دواوين (ص ١٠٧) وقد ورد هذا النصّ ايضاً في شعراء النصرانية ١ : ١١٧)

١٢ (الزُغزُغيَّة) « يقال : كلَّمتُهُ بالزغزغيَّة . بالضمّ . وهي لغة لبعض العجم كما في اللسان والعباب . وقال ابن فارس الزاي والغين ليس بشيء . » (التاج)

١٣ (الشَنشَنَة) في لغة اليمن : تجعل الكاف شيناً مطلقاً كلَبَّيشَ اللهمَّ لَبَّيشَ . اي لَبَّيكَ (المزهر ١ : ١٠٩) . ولم يذكر احد اللغويين هذه اللفظة بهذا المعنى فهي من المستدركات . وقال المسعودي في مروج الذهب (في حاشية نفح الطيب ١ : ١٨٣) : واهل الشحر اناسٌ من قضاعة وغيرهم من العرب وهم مهرة ولغتهم بخلاف لغة العرب وذلك انهم يجعلون الشين بدلاً من الكاف . مثال ذلك ان يقولوا : هل « لِش » فيما قلتِ لي وقلتُ « لِش » ان تجعلي الذي معي في الذي « مَعِش » . يريد : هل لكِ فيما قلتِ لي وقلتُ لكِ ان تجعلي الذي معي في الذي معك . وغير ذلك من خطابهم ونوادر كلامهم . اه

١٤ (الطَمطَمَة) ان يكون الكلام شبيهاً بكلام العجم (عن التذكرة الحمدونيَّة والقالي في شرح اللباب) وهي بهذا المعنى من المستدركات على اصحاب دواوين اللغة

١٥ (الطُمطُمانيَّة) تعرض في لغة حِميَر كقولهم : طابَ أمهواء اي طاب الهواء . (المزهر ١ : ١١٠) وقال في التاج : طُمطمانية حِميَر بالضمّ ما في لغتها من الكلمات المنكرة تشبيهاً لها بكلام العجم . هكذا فسَّرهُ غير واحدٍ من ائمة اللغة وصرَّح بهِ المبرِّد في الكامل والثعالبي في المضاف والمنسوب . وقيل : هو ابدال اللام ميماً . واشار الى توجيه ذلك الزمخشري في الفائق (٥١٠) . وامَّا قول البستاني في محيط المحيط : « طمطمانية حِميَر ما في لغتها من الكلمات المنكرة كقولهم في طاب الهواء : طابَم هواء » (بهذا الضبط وهذا الحرف) فلم اقع عليهِ . وقد صحَّحَهُ الشرتوني في اقرب الموارد فقال : طاب أم هواء » وكان الحقّ ان تكتب كلمة واحدة اي « أمهواء » كما فعلهُ سائر اللغويين . الّا انهُ اتَّبع فريقاً آخر يكتبها في كلمتين ومنهم صاحب شرح الطرَّة عن الغرَّة (ص ٤٤٩)

١٦ (عَجْرَفِيَّةُ ضَبَّة) ذكرها في المزهر (١ : ١٠٤) ولم يفسرها. وهكذا فعل ايضاً صاحب خزانة الادب. واليك نصهما: «وفي امالي ثعلب: ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم وكشكشة ربيعة وكسكسة هوازن وتضجُّع قيس (وفي المزهر: تضجُّع قُرَيش وهو غلط ظاهر كما نبهنا عليه فُوَيق هذا) وعجرفيَّة ضبَّة». اه وقال السيد المرتضى: «قال ابن سيدة: وعجرفية ضبَّة: اراها تقعُّرهم في الكلام». اه

١٧ (العَجْعَجَة) هي في لغة قضاعة يجعلون الياء المشددة جيماً. يقولون في تميمي تميمجّ (المزهر ١ : ١٠٩) وقال في التاج: «المعجعجة في قضاعة كالعنعنة في تميم يحوّلون الياء جيماً مع العين يقولون: هذا راعجٌ خرجَ معِج. اي: اي هذا راعيٌّ خرج معي. كما قال الراجز: خالي لقيط وابو عاجٍ ...» اه. وقال السيوطي في موطن ثانٍ من المزهر (١ : ١١٠): ومن اللغات المذمومة: ابدال الياء جيماً في الاضافة نحو غلامج (اي غُلامي) وفي النسب نحو بصرجّ وكوفجّ (في بصريّ وكوفيّ) اه. قلتُ: ولعلهم استعملوا هذا الابدال في غير ما ذُكرت شروطهُ اي في غير الألفاظ المجاورة فيها الياء للعين او في غير الاضافة والنسب فقد قالوا مثلاً: الإجَّل في الإيَّل والشَّجر في الشَّيَر

١٨ (العَنْعَنَة) هي في كثير من العرب في لغة قيس وتميم. تجعل الهمزة المبدوءة عيناً يقولون في «أنَّكَ»: «عَنَّكَ» وفي «أَسلَمَ»: «عَسلَمَ». وفي «إذَنْ»: «عِذَنْ» (المزهر ١ : ١٠٩) قلتُ: وربَّما جعلوها كذلك وتصرَّفوا بها هذا التصرُّف في حشو الكلمة وعجزها ايضاً. فقد جاء عنهم الفاظ كثيرة تؤيد كلامنا هذا من ذلك: الخَبْع في الخَبْء. وخَبَعْتُ الشيء في خَبَأْتهُ. والجِباع في الجِباء. وكثأ اللبن وكثعَ. والكثأة والكثعة. والسُّمْء لونهُ والسُّمعَ. وتصدَّأ له وتصدَّع له. وموتٌ ذُعاف وزعاف في موت ذؤاف وزُعاف. والسعف في السأف. والمعص في المأص ومعصة في مأصة الخ الخ الخ

١٩ (الفَحْفَحَة) قال في المزهر (١ : ١٠٩): هي في لغة هُذَيل يجعلون الحاء عيناً. اه. قلتُ: وهي في لغة ثقيف ايضاً. قالهُ التاج في مادة ع ت و. واليك امثلة على ذلك: ضبحت الخيل وضبعت. وهو عفضاج وحفضاج (اذا تفتَّق وكثر لحمُهُ). وتحثّر الشيء وتعثّرهُ. وحنظى الرجلُ وعنظى (اي بذأ وأفحش في الكلام). ونزل بحِراهُ وعِراهُ (اي قريباً منهُ) كل ذلك من المزهر (١ : ٢٢٤). وعتّى في حتّى (المزهر ١ : ٢٢٨) وجميع

اللغويين) ونخمُ في نَعَمْ . وحَن في عَنْ . ولَحَسَ ولَمَسَ . وحرَّج به الطريق تحويجًا وعوّج به تعويجًا (التاج وسائر اللغويين) الخ

٢٠ً (الفُراتيَّة) قال المبرّد في الكامل : . . . قال معاوية يومًا : مَن افصح الناس ؟ فقام رجلٌ من السماط فقال : قومٌ تباعدوا عن فُراتيَّة العراق . . . والفراتيَّة لُغة اهل الفرات الذي هو نهر الكوفة . (عن خزانة الادب ٤ : ٥٩٥ و ٥٩٦) وقال الخفاجي في شرح درة الغوّاص (ص ٢٣٥) : ورُوِي بدل قولهِ « فراتية العراق » : لخلخانية العراق . واللخلخانية اللُّكنَةُ من قولهم لخَ في كلامهِ . اذا جاء بهِ ملتبسًا . اه المقصود من نقلهِ

٢١ً (القُطْعَة) لُثغَةٌ (كذا والاصح لغة) في بني طيء . . . . وهي ان يقول : يا ابا الحَكَا . يريد يا ابا الحَكَم . فيقطع كلامهُ . (التاج) وقال في محيط المحيط : والقُطْعَةُ ايضًا لُثغَة (كذا ايضًا) في بني طيء ، كالعَنْعَنة في بني تميم . ومنها قول بعضهم : يا ابا الحكا يريد يا ابا الحَكَم اه . قلتُ : والعنعنة ليست بلاثغة بل هي لغة كما رأيت

٢٢ً (كَسْرُ قيس واسد) ذكرها صاحب المزهر ولم يفسرها (١ : ١٠٤) ولا شكَّ في أنها التَلتَلة او التَضَجُّع

٢٣ً (الكَسْكَسَةُ) وهي في ربيعة ومُضَر يجعلون بعد الكاف او مكانها في المذكَّر سينًا على ما تقدَّم وقصدوا بذلك الفرق بينهما (المزهر ١ : ١٠٩) . وقال في التاج : والكسكسة لغة لتميم لا لبكر كما زعمهُ ابن عبَّاد وانَّما لها الكشكشة باعجام الشين . . . وبه فُسِّر حديث معاوية رضهُ : تياسروا عن كسكسة بكر (كذا . فاذن هي لغة بكر ايضًا) وقيل الكسكسة لهوازن . اه

٢٤ً (الكَشْكَشَة) هي في ربيعة ومُضَر يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنّث شينًا فيقولون : رَأَيْتُكِشْ وبِكِشْ وعَلَيْكِشْ [في رأيْتُكِ وبكِ وعَلَيْكِ] فمنهم من يثبتها حالة الوقف فقط وهو الاشهر . ومنهم من يُثبتها في الاصل ايضًا . ومنهم من يجعلها مكان الكاف ويكسرها في الوصل ويسكنها في الوَقف . فيقول : منش وعليش (المزهر ١ : ١٠٩) وقد اورد الزبيديّ شرح هذه المادة بتطويل والمعنى لا يزيد على ما تقدَّم ذكرهُ

٢٥ً (اللُّثغة) ان تعدل بحرفٍ الى حرف (عن التذكرة الحمدونيَّة)

٢٦ (اللَّخْلَخانيَّة) تعرض في لغة اعراب الشحر وعُمان. كقولهم مشا الله اي مَا شاء الله (المزهر ١ : ١١٠)

٢٧ (اللَّغْلَغة) يُقال في كلامهِ لَغْلَغة اي عُجمة ولَخْلَخَة. قالهُ ابن الاعرابي (التاج)

٢٨ (اللَّفَف) ادخال حرفٍ بحرفٍ (التذكرة الحمدونيَّة)

٢٩ (اللُّكْنَة) من لَكِنَ [اذا كان] لا يُقيم العربيَّة لعجمة لسانهِ وقيل اللكنة في اللسان. وقال المبرِّد: هو ان تعترض على كلام المتكلّم اللغةُ الاعجميَّة يُقال: فُلان يرتضخ لُكْنَةً رومية (التاج). وقال في شفاء الغليل: هي ان يعرض على الكلام اللغةُ العجميَّة. اه

٣٠ (النَّعْنَعة) رتَّة في اللسان او كالرُّتَّة وهو اذا اراد قول «لع» ذهب لسانهُ الى «نع» فتقول: سمعتُ نَعْنَعَةً ترجع الى العين والنون (التاج)

٣١ (الوَتْم) في لغة اليمن تجعل السين تاء كالنات في الناس (المزهر ١ : ١٠٩) ولم يذكرها اصحاب دواوين اللغة

٣٢ (الوَكْم) في لغة ربيعة وهم قوم من كَلْب يقولون: عَلَيْكِمْ وبِكِمْ حيث كان قبل الكاف ياء او كسرة (المزهر ١ : ١٠٩). وقال في التاج: يُقال هم يَكِمونَ الكلام بكسر الكاف من يَكِمُونَ. اي يقولون السلام عَلَيْكِمْ بكسر الكاف. قلت: وهي لغة اهل الروم الآن. اه

٣٣ (الوَهْم) في لغة كلب يقولون: مِنْهِمْ وعَنْهِمْ وبَيْنَهِمْ وان لم يكن قبل الهاء ياء ولا كسرة (المزهر ١ : ١٠٩). ولم يذكرها احدٌ من اصحاب كتب مَتْن اللغة

وهناك لغات ولثغات لم تُسَمَّ باسماء من ذلك ان منهم من كان يجعل الكاف جيماً كالجُعْبة يريد الكعبة (المزهر ١ : ١٩) ومن يَرْتَجُّ ويرتكُّ (اذا ترجرج) واخذهُ سجّ في بطنهِ وسكّ (اذا لان بطنهُ) وزيجان الطير وزمكَّاؤهُ وريح سيهوج وسيهوك (شديدة) كل ذلك عن المزهر ١ : ٢٢٤) ودمجتَ الارنب ودمكتَ اي اسرعت في عدوها. وجظّ وكظّ. وجَفْجَفَ وكَفْكَفَ. وجلت وكات. وجدجد وكدكد. وجعدب وكعدب. ونجم وكمم. وجفأ وكفأ. وجضم وقضم. وكركر وجرجر. وجدّ وقدّ. وسجّ وسكّ. ورتق ورتج. (عن اللغويين)

ومن اللغات المذمومة: الحرف الذي بين القاف والكاف (اي الكاف الفارسيَّة المثلثة الفوقيَّة وهي الجيم المصريَّة الحاليَّة) في لغة تميم المزهر (١: ١١٠)... والذي بين الجيم والكاف في لغة اليمن (اي الجيم المثلثة التحتيَّة وهي فارسيَّة الاصل) (المزهر ١: ١١٠). وفي لغة مازن تُبدل الميم باء (موحدة التحتيَّة) والباء ميماً. يقولون: باتَ ألمبيرُ اي مات البعيرُ (التاج في اول باب الباء). ومن امثلة هذه اللغة الظأب والظام (يلف الرجل). يقال: تظاءبا وتظاءما (اذا تزوَّجا اختين) والرباء والرماء. وما أسمُكَ وبَسْمُكَ ويُقال للعجوز وكل مُسِنَّة: قحبة وقحمة. والرجبة والرجمة (ما تُعمد به النخلة لئلاَّ تقع). وسبد شعرهُ وسمدهُ (اي حلقهُ). والسابس والسامس (شجر). وما عليه طحربة وطحرمة (اي خرقة). وضربة لازب ولازم. وهو يرمي من كثب ومن كثم (اي من قرب وتمكُّن). ووقع في بنات طمار وطبار (اي داهية) وعجْب الذنب وعجمهُ. واسود غيهب وغيهم. وازمة وازبة (وهي الشدة والضيق). والقرهب والقرهم (السيد). ويقال مَهلاً وبَهلاً (في معنًى واحد). ويقال للظليم أرمد وأربد (وهو لونٌ الى الغبرة) (عن المزهر ١: ٢٢٣ و ٢٢٤)

وفي لغة طيء تُبدل التاء هاء في الوقف كقولهم: دَفْنُ البناهْ من المكرُماه. اي دفن البنات من المكرمات (عن النُحاة). ومن العرب من يعكس هذا الابدال فيبدل هاء التأنيث تاء في الوقف. فيقول قامت العالمت (اي قامت العالمة) عن النحاة ولهم غير هذه اللغات ممَّا يطول شرحهُ وذكرهُ (له بقيَّة)

الكتب الليتورجيَّة في الكنيسة القبطيَّة

نظر للاب الكسيس مالون اليسوعيّ

لنصارى القبط في مصر طقوس خصوصيَّة يجرون عليها منذ القديم وهم يعزونها لرسولهم الاوَّل وهو القديس مرقس الانجيليّ تلميذ بطرس الهامة لمَّا قدم الاسكندريَّة في اواسط القرن الاوَّل للميلاد ونصب فيها كرسيَّهُ ونشر النصرانيَّة في كل وادي النيل

وكانت مصر اذ ذاك احدى ولايات رومية يدبّرها حاكم يختاره القيصر بنفسهِ. بيد أنها كانت تتبع في سياسة امورها الرسوم التي انشأها البطالسة سابقاً. امَّا اللغة فكانت اليونانيَّة في الاسكندريَّة وضواحيها وكانت القبطيَّة غالبةً على البلاد الواقعة ما وراء هذا النطاق الضيّق. فلمَّا دعا القديس مرقس ورفقتهُ اهل الاسكندريَّة الى الانجيل اتَّخذ اليونانيَّة كلغة البشارة المسيحيَّة وبها كتب انجيلهُ كما لا يخفى. وكذلك لا نشكُّ في ان رسول الاقباط اقام الاسرار المقدَّسة في اوَّل الامر بلغة اليونان ولكن لمَّا كان قسمٌ من الشعب لا يفهم اليونانيَّة جرت العادة ان يفسَّر لهم بالقبطيَّة بعض اجزاء الرتب واهمّ ما فيها لافادتهم كما يُقرأ اليوم الانجيل باللغة العربيَّة بعد قراءتهِ بالقبطيَّة

وقولنا هذا في اللغة الطقسيَّة عند الاقباط انما هو على وجه الاجمال لاسيَّما في بلاد مصر السفلى حيث كان لليونانيَّة سيطرة وشيوع لا يُنكران. امَّا بلاد الصعيد التي لم تتجاوز اللغة اليونانيَّة فيها اصحاب الامر وعُمَّال الدولة فعندنا انَّ الرُتب الدينيَّة نُقلت فيها من اليونانيَّة الى القبطيَّة منذ القرون الاولى وان لم نجد على ذلك ادلَّة صريحة وانَّما هذا اقرب الى العقل اذ تلك كانت عادة الرسل والمبشّرين الاوَّلين الذين كانوا يقيمون الاسرار الالهيَّة في كلّ بلد باللغة الشائعة عند اهلهِ

ويؤيّد رأينا ما ورد في مديح ماكاريوس اسقف ادكو الذي فاهَ بهِ ديوسقورس البطريرك الاسكندري زعيم اليعاقبة فيُروى في هذا الخطاب (١ ان ماكاريوس المذكور اجر وديوسقورس الى خلقيدونة ليحضرا معاً المجمع الذي عُقد في تلك المدينة سنة ٤٥١ فروى ديوسقورس عن رفيقهِ قال: وكان ماكاريوس لا يفهم اليونانيَّة فالتجأت الى بطرس الشمَّاس الذي كان يتقن اليونانيَّة والقبطيَّة على حدّ سواء ليكون ترجماناً بيني وبينهُ » وقد اردف ذلك بقولهِ: « وقال لي ثاوفسطس الشماس: وماذا نصنع بهذا (الاسقف) الابكم الذي اجر معنا. ألعلَّ المراطقة هم مصريُّون ليجادلهم (بالقبطيَّة) »

فترى ان هذا الاسقف كان يجهل اليونانية مطلقاً فلا غرو انهُ كان يصلّي بالقبطيَّة وبها يقيم الليتورجيَّة الالهيَّة وقس عليه كثيرين من امثالهِ

---

١) راجع مخطوطات المكتبة الواتيكانيَّة العدد ٦٨

ثم تكاثر شيئاً فشيئاً استعمال اللغة القبطيّة وزاد انتشارها بعد شيوع البدعة اليعقوبيّة في مصر الوسطى وفي الصعيد . فان اليعاقبة كانوا يؤثرون اتّخاذ اللغة القبطيّة في رتبهم بغضاً بالملكيين من مواطنيهم الذين كانوا في وادي النيل يقيمون المناسك الدينيّة باليونانيّة قبل العربيّة . ولم يزالوا كذلك حتى عمَّ ذلك الاقباط جميعاً نحو القرن الثاني عشر

وقد قلنا سابقاً انَّ الأقباط كانوا نقلوا الى لغتهم كتب الطقوس اليونانيّة فجروا عليها في لغتهم . الّا انَّ هذا القول ليس بمطلق لانَّ الأقباط وضعوا لذويهم كتباً غير الكتب اليونانيّة صنّفوها بالقبطيّة وادخلوها في مدار رتبهم السنويّ كما سترى

*

انَّ مجموع طقوس الكنيسة القبطيّة في الكتب الآتية : كتاب القداس . ثم الفرض القانوني . ثم كتاب الرسامات ثم الإفخولوجيون ثم خدمة الاسرار المقدَّسة ثم الثاودوكيات وبعض الكتب المتضمّنة رتب جمعة الآلام والاعياد

١ كتاب القداس

قد سبق حضرة الاب لويس شيخو فوصف في المشرق (٢ : ٨١٧) كتاب قداس الكنيسة القبطيّة فلا نرى داعياً الى تكرار وصفهِ . ونكتفي بان نضيف الى ما اثبتهُ هناك بعض الافادات عن ترجمة هذا الكتاب ونقلهِ الى اللغات الاوربيّة

نُقل القدّاس القبطي لاوَّل مرَّةٍ في رومية الى اللاتينيّة بهمّة احد ادباء الموارنة منصور شلّاق العاقوريّ الّا ان ترجمتهُ لم تكن عن القبطيّة بل عن نسخة عربيّة وجدها مع النسخة القبطيّة عند بعض العلماء يُدعى يوسف سكاليجر . وقد نُشرت الترجمة المذكورة في أوسبرغ سنة ١٦٠٤ وكان المتولّي نشرها مرقس ڤلسيريوس . وهذه الترجمة نفسها أُدرجت بعدئذٍ في جملة الليتورجيّات المطبوعة في المجموع المعروف بمكتبة الآباء. وهذه الترجمة لا يعيرها علماء زماننا بالًا لما فيها من الخلل وقلّة الضبط والتدقيق في النقل

وعقبَ هذا النقل الاوَّل نقلٌ ثانٍ قام بهِ الكاهن العلّامة اوسابيوس رينودو الذائع الشهرة وذلك سنة ١٧١٦ فترجم عن القبطيّة الى اللاتينيّة الليتورجيّات الثلاث اعني قداس القديس باسيليوس والقديس غريغوريوس والقديس كيرلّوس والحقها بثلاثة

نوافير اخرى مع الاصل اليوناني. وفي جملة هذه النوافير اليونانيّة قداس القديس مرقس الذي احتفل بهِ غبطة البطريرك كيرلُس الثاني يوم ارتقائهِ الى السدَّة البطريركية

امَّا النافوران الآخران فلا يختلفان عن ليتورجيَّتي القديسَيْن باسيليوس وغريغوريوس وما نشرهُ بالطبع العلّامة يوسف السمعاني في كتاب مجموع طقوس الكنيستين (المجلّد السابع) ليتورجيةُ الكنيسة الاسكندريَّة. وترى هناك الاصل القبطي مكتوبًا بحروف يونانيَّة مع الترجمة اللاتينيَّة

وما خلا هذه التراجم اللاتينيَّة قد نُقلت الليتورجيَّة القبطيَّة مرارًا الى اللغة الانكليزيَّة منها ترجمة شركة الكنيسة الشرقية سنة ١٨٦٦ وترجمة الانكليزي مالان سنة ١٨٧٢ وترجمة حديثة لبرَيْتمان (Brightman) سنة ١٨٩٦ لكن صاحبها اكتفى بنشر نافور القديس مرقس باليونانية وترجمة نافور القديس باسيليوس القبطيّ

وقد سعى موخَّرًا غبطة البطريرك الجليل كيرلوس مقار بنشر ترجمة افرنسية لليتورجية القبطيَّة طبعت في مجلّة الشرق المسيحي (١٨٩٩)

٢ كتاب الفرض القانوني

ان الفرائض القانونية كما يتلوها الاقباط في ايَّامنا على غاية السذاجة فانهُ يُقتضى على الكاهن تلاوة الساعات السبع وكلُّها على طول واحد بالتقريب. وهي كما ترى:

١ صلوة باكر النهار † ⲡⲣⲟⲥⲉⲩⲭⲏ ⲙⲡⲓϣⲱⲣⲡ ⲛϩⲟⲟⲩ

٢ صلاة الساعة الثالثة † ⲡⲣⲟⲥⲉⲩⲭⲏ ⲛⲧⲉ ⲁϫⲡ ϣⲟⲙⲧ

٣ صلاة الساعة السادسة † ⲡⲣⲟⲥⲉⲩⲭⲏ ⲛⲧⲉ ⲁϫⲡ ⲥⲟⲟⲩ

٤ صلاة الساعة التاسعة † ⲡⲣⲟⲥⲉⲩⲭⲏ ⲛⲧⲉ ⲁϫⲡ ⲯⲓⲧ

٥ صلاة الغروب † ⲡⲣⲟⲥⲉⲩⲭⲏ ⲛⲧⲉ ϩⲁⲛⲁⲣⲟⲩϩⲓ

٦ صلاة النوم † ⲡⲣⲟⲥⲉⲩⲭⲏ ⲛⲧⲉ ⲡⲓϩⲓⲛⲓⲙ

٧ صلاة نصف الليل † ⲡⲣⲟⲥⲉⲩⲭⲏ ⲛⲧⲉ ⲧⲫⲁϣⲓ ⲛⲧⲉ ⲡⲓⲉϫⲱⲣϩ

ويتحتَّم على الاسقف تلاوة ساعة ثامنة وهي ساعة الستار امَّا الصلوات فلا تختلف البتَّة على مدى السنة وفي كلّ اسبوع. وكلّ ساعة تبتدئ ببعض صلوات استعداديَّة كالصلاة الربية وسلام الملاك والمزمور « ارحمني يا الله » وصلاة الشكر (ⲙⲁⲣⲉⲛϣⲉⲡϩⲙⲟⲧ). ثم يليهِ القسم الجوهري من الفرض وهو عبارة عن عدد

معلوم من المزامير يختلف بين ١٠ مزامير و ٢٠ مزموراً ويعقب المزامير في كل ساعة قراءة بعض قطع من الانجيل مع تسابيح مختلفة فيها قسم مخصوص بمديح البتول وتختم الصلاة بالحلّ من الخطايا (ⲙⲉⲧⲣⲉⲙϩⲉ) وهي صلاة تعمّ كل الرتب الدينية .

والكتاب المتضمّن للصلوات القانونية لم يطبع سوى مرّة واحدة تولى طبعهُ رافائيل طوخي في رومية سنة ١٧٥٠ . وعنوان الكتاب « كتاب الصلوات النهاريَّة والليلية السبعة »

ⲟⲩϫⲱⲙ ⲛⲧⲉ ⲛⲓⲉⲩⲭⲏ ⲙⲡⲓϩⲟⲟⲩ ⲛⲉⲙ ⲡⲓⲉϫⲱⲣϩ ⲛϣⲁϣϥ

٣ كتاب الرسامات

هو الكتاب الحاوي للصلوات التي تُتلى في منح الدرجات الكنسيَّة من رتبة القارئ الى المرتبة البطريركية على النظام التالي

١ً القارئ (ⲁⲛⲁⲅⲛⲱⲥⲧⲏⲥ) وهذه الرتبة اوَّل الدرجات الاكليريكيَّة وربَّما مُنحت شرفاً لابناء العيال الكريمة التي امتازت بغيرتها في سبيل الدين

٢ً الشمَّاس الرسائلي (ⲡⲓϩⲩⲡⲟⲇⲓⲁⲕⲱⲛ). صاحب هذه الرتبة لا يُقضى عليه تلاوة الفرض القانوني

٣ً الشمَّاس الانجيلي (ⲡⲓⲇⲓⲁⲕⲱⲛ). يلزمهُ تلاوة الفرض .

٤ً رئيس الشمامسة (ⲡⲓⲁⲣⲭⲓⲇⲓⲁⲕⲱⲛ) هي رتبة قليلة الشيوع في ايَّامنا

٥ الكاهن (ⲡⲣⲉⲥⲃⲩⲧⲉⲣⲟⲥ)

٦ً الهيغومانس (ϩⲏⲅⲟⲩⲙⲉⲛⲟⲥ) يتولى رئاسة الكهنة وينوب عن الاسقف في غيبتهِ. ولا يزال الأقباط حتى يومنا يعظّمون رتبة الهيغومانس. وهي شائعة ايضاً بين الكاثوليك منهم فان ابرشيَّة ثيبة تُقسم الى ايالات متعددة ولكل ايالة كاهن من رتبة هيغومانس

٧ً الأُسقف (ⲡⲓⲉⲡⲓⲥⲕⲟⲡⲟⲥ)

٨ً المطران (ⲡⲓⲙⲏⲧⲣⲟⲡⲟⲗⲓⲧⲏⲥ) يحكم على الاساقفة

٩ً رئيس اساقفة الاسكندريَّة الذي هو البطريرك (ⲁⲣⲭⲓⲉⲡⲓⲥⲕⲟⲡⲟⲥ ⲛⲧⲉ ⲣⲁⲕⲟϯ ⲉⲧⲉ ⲫⲁⲓ ⲡⲉ ⲡⲓⲡⲁⲧⲣⲓⲁⲣⲭⲏⲥ)

والصلوات التي تُتلى اليوم في تنصيب البطريرك قد اثبتها ابو البركات منذ القرن الرابع عشر في كتابهِ المعنون «مصباح الظلمات وايضاح الخدمة». وكذلك وصف ابن العسَّال في الفصل الثالث والخمسين من كتابهِ «مجموع اصول الدين ومسموع محصول اليقين» خواصّ الرتبة البطريركية تحت هذا العنوان: «في الامام الكبير والامامة وهو الكاهن الكبير والكهنوت وهو البطريرك»

ويلحق بهذه الرتب بعض احوال دينية لها علاقة مع الرتب الكهنوتية اخصُّها قسمة الرهبان (ⲡⲓϫⲓⲛⲫⲱϣ ⲛⲛⲓⲙⲟⲛⲁⲭⲟⲥ) وقسمة الراهبات (ⲡⲓϫⲓⲛⲫⲱϣ ⲛⲛⲓⲥϩⲓⲟⲙⲓ ⲙⲙⲟⲛⲁⲭⲏ). وللرهبان في البيعة القبطية مقام رفيع وكانت القاعدة سابقًا ان البطريرك لا يُقام الّا من الرهبان او يلزمهُ على الاقلّ ان يكون لبس الاسكيم الرهباني قبل تنصيبهِ

وهذا كتاب الرسامات قام بطبعهِ رافائيل طوخي في رومية سنة ١٧٦١. وقد نشر منهُ الاب العازاري ارموني (M^r Ermoni) نبذًا بالقبطية والفرنسية في مجلّة الشرق المسيحي (١٨٩٨—١٩٠٠)

٤ الانخولوجيون

رُبَّما جُمع الانخولوجيون وكتاب الرسامات في كتاب واحد ذي قسمين. والانخولوجيون يشمل الصلوات التي تُتلى في مقامات شتَّى كتدشين الكنائس ونصب المذابح وتقديس الآنية الى غير ذلك كما هو شائع في جميع الطوائف النصرانية. وهذا الكتاب برز ايضًا في مطبعة انتشار الايمان بهمَّة رافائيل طوخي سنة ١٧٦٢

٥ كتاب خدمة الاسرار وتجانيز الموتى الخ

في هذا الكتاب مجموع الصلوات التي تقال في الاسرار المقدَّسة كالمعموديَّة والتثبيت وغير ذلك. ثم رُتَب تجنيز الموتى على اختلاف مراتبهم من عالميين او اكليريكيين من اطفال او نساء او عذارى الخ. وفيهِ «الهوسات» وهي تسابيح مقتطفة في الغالب من الاسرار المقدَّسة تقال في فصول السنة واعيادها. وفيهِ ايضًا «القطمارس» الشهري اعني الفصول التي تُتلى كل يوم (Καθ'ἡμέραν) من الكتب المقدَّسة

وكتاب خدمة الاسرار قد طُبع في رومية بسعي رافائل طوخي سنة ١٧٦٣ . وقد ظهر منهُ ايضاً قطع صالحة في مجلّة الشرق المسيحي منقولة الى الفرنسيّة . والعلامة السمعاني اثبت من هذا الكتاب ما يختص بسرّي المعموديّة والتثبيت في كتاب مجموع ليتورجيّات الكنيستين بالقبطيّة واللاتينيّة

اما قراءات الكتاب المقدّس فكثيرًا ما يُفرَد لها كتاب خصوصي والأقباط الازرثدكس قد نشروا آخرًا في مطبعتهم نسخةً جميلة من هذا الكتاب

٦ كتاب الثاودوكيّات

لهذا الكتاب اسمٌ آخر شائع في النسخ المخطوطة منهُ وهو « كتاب ابصلمودية » وليس هو مجموع المزامير كما يتبادر الى ظنّ القارئ بل هو عبارة عن الالحان الكنسيّة ويُدعى ثاودوكيّا على اصطلاح الكنيسة اليونانيّة والثاودوكيّا لفظة استعارها القبط من اليونان (Θεοτοκιον) وفي الجمع (Θεοτοκια) ومعناها التسابيح لاكرام البتول الطاهرة امّ الله (Θεοτόκος) وليس الكتاب الّا مجموع صلوات كانت تُتلى سابقًا في كلّ ايّام السنة ذكرًا للعذراء مريم وهي اليوم تُقال في شهر كيهك الموافق لكانون الاوّل . وقد اختصّ القبط هذا الشهر باكرام البتول يستعدّون بذلك لعيد ميلاد المسيح . فهو لديهم بمثابة شهرنا المريمي وفي صلوات الفرض ما يشعر بتعظيم البتول واطرائها والتماس شفاعتها وكان القبط يقبلون على مديح السيّدة بنشاط غريب في هذا الشهر والدليل على ذلك كثرة نسخ كتاب الثاودوكيّات التي بلغت عهدنا

وفي مكتبة كليتنا الشرقيـة نسخة جميلة من هذا الكتاب خُطّت في مصر ثم تناقلتها الايدي حتى وصلت الى حمص فارشدنا اليها حضرة الاب الفاضل الخوري اوجين دلّال السرياني الكاثوليكيّ فاسرعنا الى ابتياعها ولمّا كانت هذه النسخة فريدةً في بابها احببنا ان نصفها لقرّائنا بوجيز الكلام

هذا الكتاب عبارة عن ٤٣٠ صفحة من قطع الثمن طوله ٢٢ سنتيمترًا في عرض ١٥ س . وفي كل صفحة ١٩ سطرًا . وهو مخطوط بخطّ حسن جليّ بالقبطيّة وربّما أُضيفت الى القبطية ترجمة عربية في جدول صغير بازاء الاصل القبطيّ . وفي دائرة الكتاب اطار ذو ثلاثة خطوط ملوّنة احمرَين فازرق . والمتن بحبرين اسود واحمر . وفي



اوّل الفصول واواخرها نقوش بالوان مختلفة يكثر فيها الذهب. ومع هذه الحلى تصاوير متعدّدة منها صُلبان على هيئات شتّى ومنها حيوانات رمزيّة كالطاووس والسمك واعراض القربان الأقدس. وفي راس الفصول القبطية ترى طائرًا على شبه العقاب وهو يدلّ على حرف ϩ القبطيّ استعاروهُ من اصطلاحات قدماء المصريين

امّا تاريخ هذا الكتاب فمجهول وانّما يُستدلُّ على عهدهِ من مدادهِ وورقهِ فلا يبعد ان يكون خُطَّ منذ ١٥٠ سنة الّا الورقة الاولى منهُ فانّها حديثة. ويدعى ناسخهُ مرقس بن تادروس كما ورد في آخر بعض فصولهِ: « اذكر يا ربّ عبدك الحقير مرقس بن تادروس ناسخ هذا الكتاب المقدَّس في ملكوت السماوات »

والظاهر انَّ هذا الناسخ مع براعتهِ في الخطّ القبطيّ كان يجهل لغة اجدادهِ لما شحن بهِ نسختهُ من الاغلاط. وكان مع ذلك عارفًا بالعربية محبًا لآدابها وتراهُ يحلّي اواخر الفصول بحكم عربية يزينها بالنقوش كقولهِ: « يا واهب العقل والادب اغفر لمن قرأ وسامح لمن كتب » او يدوّن حكمًا شائعة وآيات وامثالًا كقولهِ: « راس الحكمة مخافة الله » و « المجد لله في العلى » و « السلام للصليب شجرة الحياة ». والكتاب موقوف على كنيسة الاسكندريّة سنة ١٥٥٠ للشهداء (١٨٣٣ م) كما يظهر من آخرهِ بعد ختم صرابامون اسقف الاسكندريّة اليعقوبي كما يلي:

بسم الله الرووف الرحيم صرابامون
المجد لله في العلو الاسقف

†

« وقفًا مُؤَبَّدًا وحبسًا مخلدًا على بيعة القديس ماري مرقص الانجيلي بثغر الاسكندريّة لا يباع ولا يُرهَن ولا يخرج من البيعة المذكورة وكلمن خَرَّجَهُ يكون محروم ويكون نصيبه مع سيمون الساحر ويهوذا الاسخريوطي ودقلا (؟) الكافر وكلمن قطع هذه الورقة الله يقطع يمينه بسيف من نار والذي يحفظه على وقفيته يكون محالل مبارك ولله الشكر دائمًا ابدًا سرمديًا في ٥ شهر بشنس سنة ١٥٥٠ قبطية

امّا مضمون الكتاب فهو كما قلنا تسابيح واناشيد البعض منها لاكرام الثالوث وللسيد المسيح والقديسين واكثرها في مديح السيدة البتول افتتحهُ الناسخ بما حرفهُ:

« نبتدئ بعون الله تعالى وحسن توفيقهِ بنسخ ابصلمودية حاوية السبعة (تداكيات)

والاربعة (التسابيح) والطروحات والابصاليات وكل ما يحتاج اليه في شهر كيهك المبارك »

وهذه التسابيح ليست منقسمةً الى ٣٠ قسمين لكل يوم من ايّام الشهر بل الى سبعة اقسام تُعاد اربع مرَّات في الشهر اعني مرَّةً في كل اسبوع على ترتيب واحد

ودونك وصف الثاودوكيَّات وطريقة تلاوتها: يبتدئ المصلّون ببعض الصلوات العموميَّة كمألوف عادتهم في تلاوة الفرض القانونيّ اخصها الصلاة الربيَّة والمزمور « ارحمني يا الله » الخ. ثم يباشرون بالثاودوكيَّة وفيها اربعة اقسام. فالقسم الاوَّل يدعونهُ ابصالية (ⲯⲁⲗⲓ) وهي كمقدَّمة للثاودوكية. والابصالية تكون عادةً بالسجع يحرّض فيها المؤمنون انفسهم على تمجيد البتول وتعظيمها

ثم تأتي الثاودوكيَّة او التسبحة وفيها ادوار متعدّدة موزونة ولكلّ دور اربعة ابيات. وتبلغ تسبحة الاحد ١٥٧ دورًا وهي اطول تسابيح الاسبوع. وهذه التسبحة تحتوي امجاد مريم البتول على اساليب متفنّنة كما وردت في الاسفار المقدَّسة وميامر الآباء واقوال القديسين. وكلّ معانيها حسنة بهجة تشير الى تقوى الاقباط وتعبُّدهم للعذراء الطاهرة

ويدعى القسم الثالث من الثاودوكية لبشًا (ⲗⲱⲃϣ) ومعناهُ ختام البناء. فانهُ يجمع نوافذ تقويَّة يجتنيها المصلّي كثمرة صلاتهِ وفي آخرها دعاء للبتول. وفي نسختنا المخطوطة قد ميَّز الكاتب اللبش بعلامة خاصَّة

امَّا القسم الاخير فهو « الطرح » والطرح في اصطلاحهم تفسير للاقسام السابقة مع بعض ايضاحات لافادة السامعين. وهو دائمًا بالعربية يقرأهُ احد الحضور ولا يُتغنَّى بهِ. وهذا الطرح ليس بمدوَّن في طبعة رومية لرافائيل الطوخي ولعلَّهُ لم يوجد سابقًا في النسخ القديمة لمَّا كان الاقباط يفهمون اللغة القبطية فلم يكن حاجة الى شرح خصوصي بلغة أُخرى

وفي مجموعنا ترى ما عدا التسابيح في مديح امّ الله التسابيح الاربعة المنقولة من الكتاب الكريم وهي تسبحة موسى بعد ان قطع الاسرائيليون بحر القلزم (خروج ١٥) ثم التسبحة الواردة في المزمور ١٣٧. ثم تسبحة الثلاثة الفتية في اتون النار ثم تسبحة رابعة تتركَّب من المزامير ١٤٨ , ١٤٩ , ١٥٠. وهذه التسابيح تعتبر

كالشاودكيّا لها مثالها مقدَّمة وختام وشرح

*

هذه هي اخصُّ التآليف القبطية في الرتب الدينية وقد طُبعت كلُّها في رومية بهمَّة روافائيل الطوخي اسقف أرسينويه في اواسط القرن الثامن عشر

قلنا « اخصُّها » لانَّ لنا دلائل عديدة على انَّ الاقدمين اتَّخذوا في طقوسهم رتباً غيرها أُبطل استعمالها في كرور الادهار

ومن جملة هذه الرتب رتبة للفصح المجيد نشرها لاوَّل مرَّة غبطة السيّد كيرلوس مقار بطريرك القبط الكاثوليك حالاً عن نسخةٍ قديمة عنوانها « كتاب البصخة المقدَّسة » وهذا الكتاب يحتوي كلَّ رتب جمعة الآلام واحد القيامة . وصلواته في الغالب مقتطفة من آيات الكتاب الكريم

ويوجد كتب اخرى غير هذه التي لا تزال مخطوطة . والمستشرقون يهتمُّون بالبحث عنها لينشروها ويعرِّفوا خواصَّها . وقد سبق المشرق (٢ : ٢٢١) ووصف نافوراً قديماً وضعهُ احد معاصري القديس اثناسيوس وهو الاسقف سيرابيون فوجدهُ منذ عهد قريب العلّم ڤوبرمين في خزانة كتب جبل اثوس

هذا ونضرب صفحاً عن بعض كتب خطب ومواعظ بالعربيَّة تُقرأ في اعياد الاقباط . منها خُطب للشيخ الصفي ابن العسَّال طُبعت في المطبعة الوطنيَّة بمصر سنة ١٦١١ للشهداء (١٨٩٤ م) . وللاقباط الارثذكس مجموعان آخران في ذلك طبعوهما في المطبعة الاهليَّة القبطيَّة سنة ١٥٨٩ للشهداء (١٨٧٢ م) . وفي الختام نستلفت انظار اهل البحث الى طلب مثل هذه الكنوز الدفينة ليحيوها من رممها ويغنوا بها العلوم الدينية

بحث جغرافي

في سيرة القديس مارون الناسك

للاب هنري لامنس اليسوعي (تابع)

ورد ذكر « مارونية » في ترجمة الراهب مُلخَّص التي كتبها القديس ايرونيموس فقال عنها انها بلدة صغيرة (haud grandis viculus) على مسافة ثلاثين ميلاً شرقي

انطاكية (١ كانت ملكاً لصديقه ايثاغيروس الكاهن الذي ارتقى بعد ذلك الى اسقفيّة انطاكية. وكان القديس ايرونيموس ايام اقامته في انطاكية يتردّد الى القرية المذكورة مع صديقه ايثاغيروس المومأ اليه. وهذا برهان آخر على انها كانت قريبة من انطاكية لكن لا يسوغ ان تزيد عليه انّها كانت في جوار مدينة قورس اذ كان بينها وبين هذه المدينة الاخيرة مسيرة يومين على الاقلّ

فالى اي شيء اذًا يستند قول من يقولون ان القديس مارون ولد في قرية مارونية؟ لا علم لنا بذلك لان توادوريطوس الذي هو المستند الوحيد لكل ما كتبهُ الكاتبون عن القديس مارون لا يذكر شيئاً عن مكان مولده وكل المؤرخين الذين جاؤوا بعد اسقف قورس نقلوا عنهُ واذا كانوا قد اضافوا بعض زيادات الى كلامهِ فليس لهذه الزيادات عند اهل التحقيق الّا قيمة كاتبها. نعم انهم قصدوا قصدًا حسنًا فرغبوا في ان يوضحوا ما سكت عنهُ توادوريطوس غير انهُ لا غنى للمؤرخ المدقّق في امور كثيرة عن الاقرار بالجهل والقصور. وزيادةً على ذلك ان التقليدات التي يتناقلها الموارنة ساكتة ايضاً عن مكان ولادة ابيهم القديس مارون ولو كان شيء من ذلك لما تأخر البطريرك اسطفان الدويهي عن ايرادهِ. وعليهِ فانّنا نعجب كيف يمكن في هذه المسألة بَسْط الكلام اكثر من توادوريطوس والدويهي

ثم اردف صاحب تاريخ الكنيسة الانطاكية (ص ٨٤) قولهُ عن ولادة القديس مارون في مارونية» بقولهِ «انهُ درس العلوم في احدى مدارس انطاكية». وهو ايضاً امرٌ لم يُفدنا عنهُ توادوريطوس وقد اسندهُ الكاتب الحديث الى المودّة التي زعم انّها نشأت بين القديس يوحنا فم الذهب والقديس مارون الناسك (٢ منذ كانا يدرسان معاً في انطاكية. على انّنا نقرّ بسذاجة انّنا لا نفهم قوّة هذه الحجة لا بل نظنّ انّ القديس مارون كبقيّة نُسّاك زمانهِ في القورسيّة (٣ كان من اصل آرامي ويجهل اللغة اليونانيّة ومن ثم انهُ لم يدرس في مدارس انطاكية. وخلاصة القول انّ الاحرى بنا ان نقرّ بجهلنا

١) وذكر الجغرافيّ بطلميوس ايضاً مكاناً آخر في سوريّة يدعى «مارونيا» لكن يصعب القول انهُ عني مارونية التي نحن بصددها ونرجح انهُ يريد بها مركزاً في اقليم قنسرين كما ذهب اليه هرتمن ZDPV, XXIII, 145 راجع كذلك Ritter, XVII, 1569

٢) استنادًا الى الرسالة ٣٦ من رسائل القديس يوحنا فم الذهب

٣) وسيأتي بيان ذلك قريباً

المكان المعيَّن الذي وُلِد فيه القديس مارون

وان طلب منَّا القارئ رأينا في ذلك رجَّحنا كونهُ لم يولد في جوار انطاكية. وعلى كل حال لا نرى صوابًا في ما اثبتهُ حضرة الخوري غبريل (ص ٨٧) حيث قال: «انَّ البرّيَّة التي انحاز اليها القديس مارون قيل أنَّها مجاورة لتلك التي رسمها القديس ايرونيموس عندما اعتزل اليها... وذكرها في جملة كتاباته» لانَّ البرّيَّة التي اعتزل اليها هذا القديس معروفة محدَّدة الارجاء وهي ناحية متَّسعة الفناء موقعها جنوبي شرقي حلب كانت تدعى كلسيديَّة (Chalcidène) باسم عاصمتها كلسيس التي تُعرف اليوم باسم قنسرين وهي عبارة عن قفر قفر احرقتهُ الشمس يجاور برّيَّة الشام لا يسكنهُ الَّا بعض عرب البادية (١. ومن راجع وصف هذا المكان للقديس ايرونيموس لا يراهُ موافقًا لما قالهُ توادوريطوس عن البلاد التي عاش فيها القديس مارون وهي القورسيَّة كما سبق. فالرأي عندنا انَّ مولد رجل الله كان في الناحية التي فيها قضى اكبر قسم من حياته كما سيأتي نقلًا عن توادوريطوس. ولو كان مولد القديس مارون في انطاكية او جوارها لكان اختار لزهده احدى البراري العديدة الواقعة على مقربة من هذه الحاضرة والمقدَّسة بعيشة كثيرين من مشاهير العبَّاد وذلك ما يتَّضح من التواريخ البيعيَّة المكتوبة في ذلك العصر (٢ كفانا شاهدًا على قولنا مثال القديس يوحنَّا فم الذهب الذي وُلد في انطاكية ثم انقطع الى النسك في دير قريب من موطنهِ. وكذلك نظنُّ انَّ القديس مارون الذي عاش ومات في القورسيَّة وُلد ايضًا فيها ما لم يأتنا احد ببرهان جليّ على خلاف هذا الرأي

امَّا ان القديس مارون صرف حياتهُ في القورسيَّة وقضى فيها نحبهُ فالامر واضح وضوحًا تامًّا بما ورد في تاريخ الرهبان لتوادوريطس. فانَّ هذا الكاتب العظيم بعد ذكرهِ من اشتهر من النسَّاك في انطاكية وجوارها يعلن جهارًا انهُ يباشر بتراجم المتنسكين في القورسيَّة (٣ ثم يذكر اعمال ميسياس واشبسياس ويتخلَّص الى ذكر القديس مارون

---

١) وكانت لغة هذه الناحية السريانيَّة. وكان القديس ايرونيموس يفهمها (راجع مجلة الشرق المسيحي المطبوعة في رومية « Oriens christianus » لسنة ١٩٠٣ ص ٣٠٢)

٢) راجع كتاب توادوريطس في تاريخ الرهبان

٣) راجع التاريخ ذاتهُ في مجموع مين (ص ١٣١٦)

فبيّن بذلك انَّ هذا العابد الشهير كان في الناحية ذاتها. وقد زادنا ايضاحاً في اثناء كلامهِ عن القديس: «انهُ هو غارس الحديقة (يريد حديقة العيشة الرهبانيَّة) التي تزهو الآن في القورسيَّة (١ »

هذا ولا نجهل بانَّ توادوريطس قال في ترجمة ابراهيم الناسك التي الحقها بترجمة القديس مارون « انهُ هو ايضاً كان ثمرة نمت في بلاد قورس » ثم اردف قولهُ بهذه الفقرة قائلاً « وبها كان مولدهُ ». فلماذا يا ترى ضرب الصفح عن التصريح بوطن القديس مارون؟ فهل كان ذلك سهوًا منهُ او جهلاً؟ فهذه مُعضلات امكن توادوريطس ان يحلّها فلم يفعل. ولعلّهُ اكتفى بقولهِ عن ابراهيم « انهُ هو ايضاً كان ثمرة نضجت في القورسيَّة » ليشير الى انَّ اصل القديس مارون الذي سبق ذكرهُ كان ايضاً من القورسيَّة فليحكم القرّاء.

هلمَّ بنا الآن ننظر في ايّ مكان من القورسيَّة تألَّهُ قديسنا الجليل. نجيب على ذلك انَّ غاية ما اعلمنا بهِ توادوريطس في هذا الصدد انهُ « تسلّق الى قمّة جبل كان اقام فيهِ سابقاً عبدةُ الاوثان هيكلاً للابالسة » (٢. والظاهر انَّ هذا الجبل كان على بعض المسافة من قورس كما يلوح من ترجمة القديس يعقوب تلميذ القديس مارون حيث قال عنهُ توادوريطس « انهُ بعد ما سكن مدَّةً مع معلّمهِ جاء فسكن على جبل يقرب من قورس ثلاثين غلوةً » اعني على مسافة ساعة ونصف من هذه المدينة (٣. ولكن في اي جهة كان موقع جبل القديس مارون أفي شمال قورس او جنوبها او جهة أُخرى والرأي عندنا انهُ سكن احد الجبال الواقعة على طريق حلب اعني جنوبي شرقيّ قورس. ليكون مقام القديس اقرب الى افامية في اقليم سوريَّة الثانية حيث شُيّد بعد ذلك الدير الذي عُرف باسم دير القديس مارون كما سترى في فصلنا الخامس آنفاً

الَّا انَّ تعريف الجبل بعينهِ الذي اوى اليهِ القديس مارون ليس بممكن ما لم يبحث عن ذلك اهل البحث في نواحي قورس. وممَّا يساعد على ذلك فحص الخربة الهياكل الواقعة في قمم تلك الجبال والمقابلة بينها وبين ما يرويهِ اهل تلك النواحي بالتقليد مع

١) راجع الصفحة ١٢٢٣ منهُ

٢) فيهِ (الصفحة ١٢٢٤)

٣) فيهِ (الصفحة ١٢٢٦)

البحث الجغرافيّ عن مواقع تلك الاصقاع. فلا غرو انَّ من يتبع هذه الخطة يَلَقَ ما لم يكن في حسبانهِ من آثار الامكنة الدائرة في سوريَّة. وما ادراك انهُ لا يجد كتابة قديمة تميط السرَّ عن عدَّة امور غامضة (١

ولم يُدفن القديس مارون في محبسهِ فان سكَّان القرى المجاورة تنازعوا ذخائرهُ المقدَّسة حتى فاز بها اهل بلدةٍ قريبة فنقلوها الى وطنهم واقاموا للناسك القديس هيكلًا جعلوها فيهِ. ويؤخذ من بعض نصوص توادوريطس انَّ الهيكل المذكور كان على مسافة من قورس. قال هذا الكاتب الشهير: «ومع انَّنا بعيدون عن القديس فانَّ بركتهُ تشملنا وذكرهُ يقوم لدينا مقام ذخائرهِ». فعنى بهذا بُعد مدينتهِ قورس عن هذا المقام. على انَّ المكان لم يكن خارجًا عن دائرة ابرشيَّتهِ قورس لانَّ مدفنهُ كان قريبًا من محبسهِ وقد بيَّنا في ما سبق انَّ القديس عاش في القورسيَّة. ومن ثم صحَّ عندنا ان قبر القديس وهيكلهُ الاوَّلين أنَّما كانا في شمالي سوريَّة جنوبيَّ قورس في نحو نصف المسافة بينها وبين حلب

٥

هيَّا بنا الآن نبحث عن امر آخر لا تفوت فائدتهُ كلَّ بصير اعني مقام دير القديس مارون الشهير. قد تكرَّر ذكر هذا الدير في اخبار سوريَّة واشتهر رهبانهُ بما ابدوا من البسالة في الدفاع عن الايمان. ولكن تُرى اين كان موقع الدير المذكور هل اقيم بجوار هيكل القديس «مارون المعظم» (كذا دعاهُ توادوريطس في تاريخ الرهبان ص ١٢٥٤) قريبًا من ذخائرهِ المباركة كما تُرجّح ذلك التقاليد الشائعة او كان بالاحرى موقعهُ في غير مكان من سوريَّة

مهما كان من صحَّة احد الرأيين نرى الاجدر بنا ان نتصفَّح الآثار القديمة ونستضيء بنبراسها لتعريف موقع هذا المكان الذي في ظلهِ نشأت الطائفة المارونية. ولا شكَّ انَّ نصوص القدماء تساعدنا على ازالة الشبهات التي تكاثفت بهذا الخصوص. وقد عددنا

١) كالكتابة المكتوبة بلغتين يونانية فآراميَّة التي وجدناها في كراد الداسنيَّة شمالي غربي حمص على ناووس قديس يُدعى توما لم يمكنَّا حتَّى الآن بيان احوالهِ (راجع المجلَّة البلجكيَّة موزيون (Musée belge, 1901). وقد نشر حضرة الاب س. رنزڤال النص الآرامي في مجلَّة الشرق المسيحي (ROC, 1902)

ما كتبهُ المحدثون بهذا الصدد فوجدنا آراءهم متباينة متناقضة فمنهم من يجعل دير القديس عند انطاكية (١ ومنهم من يرجّح كونهُ في ضواحي حمص(٢ وبين البلدين كما لا يخفى مسافة ستّة ايام بنيّف. وربما رأيت الكاتب الواحد مضطرباً متحيراً يجعل الدير تارةً في محل وتارةً في موقع آخر حتى أننا عددنا لبعض كتبة زماننا خمسة آراء في هذا الشأن

وعندنا انَّ درس الجغرافيَّة المدقّق يُفضي بصاحبهِ الى الراي الصحيح ويرشدهُ الى الطريق المثلى. ولا بُدَّ لنا لبيان الامر من تعريف الاقسام السياسيَّة التي كانت عليها سوريَّة الشماليَّة وسوريَّة الوسطى في عهد دير القديس مارون اعني في القرنين الخامس والسادس فاذا وقفنا عليها تبينّا على التقريب الايالة التي فيها كان موقع هذا الدير المشهور. ثم نضيف الى هذه الاعلامات العموميَّة بعض نصوص جغرافيَّة تزيد بحثنا ايضاحاً

كان الرومان على عهد توادوريطس يدعون باسم سوريَّة الرومانية كل البلاد المتَّسعة الارجاء الواقعة في وسط التخوم الطبيعيَّة التي يحدق بها البحر المتوسّط وجبل طورس وبادية الشام وبريَّة طور سينا. وكانوا يقسمونها الى اربعة اقسام كبرى او اعمال اعني سوريَّة وفينيقية واقليم العرب وفلسطين. ومن هذه الاعمال لا يهمّنا هنا سوى سوريَّة وفينيقية فنقتصر كلامنا عليهما

وكان عمل سوريَّة يُقسم الى ثلاثة اقسام او ولايات يسمّونها سوريَّة الاولى او سوريَّة المجوَّفة ثم سوريَّة الثانية او سوريَّة الطيّبة ثم سوريَّة الثالثة المدعوَّة ايضاً سوريَّة الفراتية

وكانت قاعدة سوريَّة الاولى المعروفة بالمجوَّفة انطاكية العظمى وهي تمتدّ من جبل امانوس (اللكّام) شمالاً الى مدينتي اللاذقيَّة وجَبَلة جنوباً ويحدُّها شرقاً سوريَّة الفراتيَّة. فكانت سوريَّة هذه تشمل القسم الغربيّ من ولاية حلب الحاليَّة ومتصرفيَّة اللاذقيَّة من ولاية بيروت

وكانت سوريَّة الثالثة اي الفراتية تضمُّ كلَّ البلاد المعروفة سابقاً باسم كوماجينة

١) راجع الدويهي (ص ٢٩ و ٦١)

٢) اعني في وسط الطريق بين افامية وحمص (راجع اصداء الشرق السنة الرابعة ص ٩٦)

(راجع خريطة سوريَّة في المشرق ٦: ٣٥٢) وقد مرَّ وصفها فلا حاجة الى اعادة الكلام فيها. وكانت حاضرة سوريَّة المذكورة مدينة منبج (Hierapolis)

امَّا سوريَّة الثانية (١ المدعوة بالطيِّبة (Syria Salutaris) فكانت حاضرتها افامية (قلعة المضيق) وكان يدخل في حيِّزها ايبفانيا او حماة. وكانت حدود هذه الولاية الجنوبية تنحدر الى جوار حمص فيلحق بها اراثوسة ومريمين ورفانية التي موقعها على مسافة ثماني ساعات الى عشر شماليَّ غربيّ حمص. وعليه فتكون هذه الولاية مطابقة لقسم من ولاية حلب في جنوبها الشرقي ولقائمقامية حماة المركزيَّة في ولاية دمشق. وكلامنا في هذه المقالة خصوصاً عن هذه سوريَّة الثانية فلا بُدَّ للقارئ ان يودعها ذاكرتهُ ليتبعنا في بحثنا

وكان عمل فينيقية وهو القسم الثاني من سوريَّة الرومانية ينقسم الى فينيقية لبنان وفينيقية الساحليَّة

ففينيقية لبنان التي مدار كلامنا عنها هنا كانت حاضرتها حمص على الاقلّ مباشرةً لانَّ قسماً من سيطرتها بعد ذلك صار الى دمشق. وكفانا هنا علماً ان فينيقية لبنان كانت جنوبيَّ سوريَّة الثانية الطيِّبة

فلنعودنَّ الآن الى دير القديس مارون لتعريف موقعهِ. وممَّا أتفق عليهِ في هذا الباب لفيف الكتبة ان هذا الدير كان على ضفَّة نهر العاصي. وكذلك لا خلاف بانَّ موقعهُ كان في سوريَّة الثانية. وهذا امرٌ يلوح كالشمس في رائعة النهار لمن طالع العريضة التي وجَّهها رهبان هذا الدير الى البابا القديس هرمزداس مع سائر الكتابات الرسمية التي ورد فيها ذكرهُ فانَّها كلها بلا استثناء تجعل دير القديس مارون في سوريَّة الثانية

فان صحَّ ذلك بطل زعم الذين بحثوا عن دير القديس مارون خارجاً عن هذه الولاية. ومن ثم فلا صحَّة لقول من ذهب الى انَّ هذا الدير كان بجوار انطاكية (٢

---

١) وعليهِ فلا نرى مدقّقاً تحديد بعض المحدثين لسوريَّة الثانية حيث قال: « سمَّاها الاقدمون سوريَّة الثانية لتتميَّز عن سوريَّة الاولى التي تتمّ جميع ما هو من عريش مصر الى نهر دجلة »

٢) راجع تاريخ الكنيسة الانطاكيَّة (ص ١٠٩) وتاريخ الطائفة المارونية للدويهي (ص ٢٩)

او قريباً من حمص لانهُ لو كان في ضواحي انطاكيــة لكان من سوريَّة الاولى اي المجوَّفة ولو جاور حمص لعُدَّ من فينيقية لبنان

ولكن بقي ان نعيّن مكان هذا الدير ضمن تخوم سوريَّة الثانيــة في جوار نهر العاصي . وليبان الامر نرى هنا ايضاً اصلاح بعض الاغلاط الجغرافيَّة التي شوَّشت هذه المسألة وجعلتها مرتبكةً مغلقة

فالغلط الاوَّل هو غلط الذين قرَّبوا موقع افامية من حمص فجعلوا المدينتين مجاورتين وهو غلط عظيم ورد في تاريخ سرياني لدير مار باسوس ذكرهُ آنفاً فقــال صاحبهُ: « ودير الشهيد مار باسوس في بلاد افامية على مقربة (كذا) من مدينــة حمص الكبرى ». وقد شطَّ كاتب هذه الاسطر وسبب شطوطهِ انهُ وضع تاريخهُ في زمن كانت حمص بلغت فيــهِ مقاماً سامياً فبهرهُ نور شهرتها. ومن ثمَّ فانّنا نعذر الذين استندوا الى هذا القول ليجعــلوا موقع دير القديس مارون في جوار حمص بدلًا من افامية لاسيَّما انَّ افامية كانت آنئذٍ خربت بعد ان احرقها كسرى الثاني فزادت حمص بخرابها عظماً

وممَّا يشهد لنا ايضاً على ارتقاء حمص ونفوذها في تلك الاعصار انَّ العرب بعد فتح الشام لمَّا قسموا سوريَّة الى اعمال متعدّدة دعوها اجناداً جعلوا حمص جنداً وادخلوا تحت حكمها مدينتي حماة وافامية. وهذا دليل واضح على عظم شأن حمص عند دخول العرب بلاد الشام اذ انَّهــا كانت من اكبر مدن سوريَّة في شمالها الشرقيّ. فلا عجب اذن ان كان البعض اتَّخذوا حمص كقياس لتعريف المسافات كما انهم حسبوا افامية وحماة قريبتين منها لوقوعهما تحت حكمها

والغلط الثاني في هذا الباب انَّ قوماً خلطوا بين افاميــة وحماة وجعلوهما مدينة واحدة وذلك لبعض التشابه بين اسم افامية وابيفانية (اسم حماة اليوناني). وهو زعم باطل غوي به كتبة عديدون الى غاية القرن الثامن عشر منهم الكاتب دي لاروك في

وقد روى هذا العلّامة (ص ٦٥) نصّاً قديماً في سروم ورد فيه ما نصُّهُ: « قرية سروَنْ في جبل السويديَّة على مســافة متساوية بين انطاكية ودير القديس مارون » . قلنا ان كان المراد بسويديَّة القرية الحاليــة المعروفة بهذا الاسم اقتضى القول بان دير القديس مارون كان موقعهُ بين انطاكية والبحر. وهو زعم مردود

رحلته الى سورية (de la Roque: *Voyage en Syrie*. I,239) ولوكيان في الشرق المسيحي وغيرهما كثيرون بعدهما فسرى منهم الوهم الى بعض المحدثين من الكتبة الشرقيين

والصواب في ذلك انَّ افامية هي كما قلنا سابقاً قامة المضيق شمالي شرقيّ حماة. وقد اماط القناع عن هذه الحقيقة للمرَّة الاولى العلّامة بورخردت (Burckhardt) فتبعهُ العلماء المحققون في قوله بعد ذلك بنحو ربع القرن. وعليهِ فلا تثريب على بعض كتبة الشرق العلماء ان ضلُّوا في ذلك سواء السبيل

ولعلَّ سبباً آخر دفع هؤلاء الكتبة الى ان يجعلوا دير القديس مارون في ضواحي حمص وهو موقع مغارة الراهب. فانَّ هذه المغارة او بالحريّ هذه سلسلة المغاور التي وصفناها في مقالتنا تسريح الابصار (ص ١٠٧ وفي المشرق ٤: ٢٦٤) جنوبيّ حمص عند راس العاصي. ولمَّا كان بعض العامَّة يعرفونها باسم دير القديس مارون ظنَّ قومٌ انَّ المراد بهذا المكان ذلك الدير الاوَّل الذي بُني على اسمهِ قريباً من افامية

فكل هذه المزاعم اوهام لا يجوز القول بها. ومن ثم لا نرى ما كتبهُ البعض في هذا الصدد مضبوطاً حيث جعلوا دير القديس مارون «على تخوم حمص» او «في بلاد حمص وحماة» او «بين حمص وحماة» (١ او «في حمص» كما ورد في تاريخ ابي الفداء (٢ وقد تبعهُ الاب ميشال جوليان اليسوعي (٣ او في وسط الطريق بين افامية وحمص على راي الاب ڤاليه الصعودي (٤

والقول الفصل عندنا في ذلك ان موقع دير القديس مارون فُوَيق هذه الامكنة شمالًا ما وراء افامية. وممَّن كادوا يصيبون الهدف في ذلك العلّامة المسعودي من كتبة القرن العاشر للميلاد فانهُ عيّن موقعهُ بقولهِ في كتاب التنبيه (ص ١٦٣): ان هذا الدير كان «شرقي شيزر... بقرب نهر الأرُنط نهر حمص وحماة». وشيزر هذه تُعرف في عهدنا باسم شَيْجَر وهي في نصف الطريق بين حماة وافامية اي قلعة المضيق. وقد

١) راجع تاريخ الكنيسة الانطاكية (ص ١٠٩، ١٧٥، ٢٥٧، ٢٦٩)
٢) راجع تاريخ ابي الفداء (Hist. anteisl., ed. Fleischer. p. 112)
٣) في رحلتهِ الى سوريَّة وسينا (ص ١٧٨)
٤) راجع اصداء الشرق (الجزء ٤ ص ٦٠)

افادنا الكاتب عينهُ ان الموارنة كانوا كثيرين في معاملات شيزر ومعرَّة النعمان وافامية يسكنون في وسط تلك البلدان. وعندنا ان سبب نموّ الموارنة ووفرتهم في تلك الجهات انما كان قربهم من هذا الدير العظيم فتألبوا حولهُ ومنهُ قدموا وانتشروا في جهات البترون وجبيل كما بيّنا ذلك في مقالة سابقة

واصدق ما ورد في ذلك انَّما جاء في الآثار المارونيَّة التي نشرها الخوري نو الافرنسي (Opuscules Maronites, II,22) وقد ذُكر هنـاك ان دير القديس مارون كان « قريباً من افامية في وادي العاصي ». وقد آثرنا قولهُ على سواهُ لان كاتب هذا الاثر اقدم من سواهُ عهدًا سبق غيرهُ الى ذكره (١ وقد عرّف موقعهُ بدقَّـة وضبط. فمن هذا النصّ مع ما يستفاد من مراجعة اقوال المؤرخين يتَّضح لنا ليس فقط ان دير القديس مارون كان في سوريَّة الثانية بل انهُ ايضاً كان في مركز هذه الولاية

وممَّا يؤيد رأينا ما ورد في تاريخ رهبان القديس مارون المستشهدين. قال كاتب اخبارهم ان هؤلاء الرهبان بعدد ٣٥٠ خرجوا سنة ٥١٧ يريدون دير القديس سمعان العمودي اذ هجم عليهم المتعصبون فقتلوهم. فيؤخذ من هذه الرواية انهُ كان بين رهبان الديرين علاقات متواصلة وانَّهما لم يكونا متبعدين كثيرًا الواحد عن الآخر. على اننا نعلم ان دير القديس سمعان كان موقعهُ في جبل بركات على مسافة بعض ساعات من حلب غربيًّا (٢. فلا بُدَّ اذن من القول ان دير القديس مارون كان ايضاً من جهة قريباً من افامية كما سبق. وان اعترض علينـا احد ان المسافة بين الديرين لا تزال كبيرة اجبنا نعم لكن الامكنة التي يختارها غيرنا لموقع هذا الدير اذا جعلناهُ في حمص او حماة تزيد هذه المسافة زيادة بالغة بحيث لا يدرك القارئ سهولة هذه المخابرات بين الديرين لاسيَّما كيف امكن نحو ٤٠٠ راهب (٣ ان يخرجوا في وقت واحد فينتقلوا

١) لا نجهل ان عريضة رهبان القديس مارون الى البـابا هرمزداس اقدم من كاتب هذه الآثار المارونية الَّا ان تلك العريضة لا تفيدنا عن موقع الدير سوى كونه في سورية الثانية

٢) وليس كما زعم حضرة الخوري غبريل « حذاء انطاكية » (ص ١٧٥) كذلك لا يمكنَّا ان نسلّم بما جاء في ذيل هذه الصفحة نفسها

٣) قلنا ٤٠٠ راهب. ولعلَّهم كانوا اكثر. والثابت المقرَّر انَّ عدد القتلى المستشهدين منهم كانوا ٣٥٠ وقد فرَّ منهم كثيرون هاربين. وسيأتي قريباً ذكر دير آخر قريب من دير مار مارون بلغ عدد رهبانهِ ستَّة آلاف راهب بنيِّف

الى الدير الآخر. ومن ثم لا بدّ القول ان دير مار مارون كان ارقى شمالاً كما تشهد عليه الآثار التي استندنا اليها

وان كانت النتائج السابقة هي صحيحة فيبقى ان تنحصر ابحاث العلماء عن دير القديس مارون منذ الآن فصاعداً في وادي العاصي قريباً من قلعة المضيق. فينبغي على الاثريين ان يتجولوا في تلك الجهات ويفحصوا الاخربة ويجمعوا التقاليد الباقية بين اهل تلك النواحي ربما يطلعوا على موقع هذا الدير الجليل الذي احتلّهُ مئون من الرهبان الصالحين فقدّسوهُ باعمالهم وبرّ حياتهم ويشهد على ذلك المسعوديّ في كتاب التنبيه حيث قال (ص ١٩٣): « ودير مارون بنيان عظيم حولهُ اكثر من ثلاثمائة صومعة فيها رهبان وكان فيه من آلات الذهب والفضّة والجوهر شيء عظيم فخرب هذا الدير وما حولهُ من الصوامع بتواتر الفتن ». فلا شكّ انّ بناء عظيماً كهذا لم يخرب دون ان يبقَ منهُ شيء من آثاره. وان قيل ان خرابهُ سبق القرن العاشر فيصعب وجود بقاياه اجبنا انّ هذا الدير كان موقعهُ بعيداً عن البلاد الآهلة بالسكّان كما ان قلعة المضيق اصبحت منذ اجيال متعدّدة معتزلةً عن الطرق اللاحبة فلم يكثر فيها الخراب والنهب فلا ريب ان تكون ايضاً آثار هذا الدير الذي عُرف باسم دير البلّور باقيةً بجوارها حتى اليوم (التتمّة لعدد آخر)

رحلة حديثة الى صان الحجر والمنزلة

للاب الملفان الخوري لويس لورا (تتمّة لما سبق) – –

فبعد أن أجلنا الطرف في هذه الآثار القديمة جلسنا في مكان مشرف على القرية وأخربتها واعدنا النظر في ما وصلت اليه هذه المدينة من المنزلة السامية في القرون الغابرة

واوّل ما خطر لبالنا ان الفراعنة احسنوا اختيار موقع طانيس ليجعلوها حاضرةً لملكتهم وذلك للطف هوائها اذ كانت بعيدةً عن البحر ورطوبته المُضنكة من جانب

وعن حرارة بلاد الصعيد المحرقة من جانب آخر وهي مع ذلك على ضفَّة النهر تتَّصل بها مرافق النيل ومحصولات بلاد الشام

امَّا تاريخ انشاء طانيس فقديم في القدم وقد افادنا موسى كليم الله في سفر العدد (١٣ : ٢٣) انَّ صوعن وهي طانيس كما سبق بُنيت سبع سنين بعد حبرون المعروفة بمدينة الخليل ونعلم انَّ هذه المدينة من اقدم بلاد الله ورد ذكرها في سفر التكوين في جملة اخبار ابراهيم

امَّا ترقّي طانيس في سُلَّم الحضارة فانَّما كان اوَّلًا على عهد السلالة الثانية عشرة الثيبيَّة. فزيَّنها الملكان أمنمحات واوسيرتيسين بالابنية الفخيمة. وفيها وجد العلّامة ماريت تمثالي هذين الملكين

ثم قامت الدولة الثالثة عشرة فجعل ملوكها طانيس كتخت مملكتهم وشيَّدوا فيها المباني الفاخرة لاسيَّما الملكين الغازيَين سوفختبو خنوفرِي ونوفرحُتبو. وقد اكتشف ايضًا ماريت تمثال الاوَّل منهما في وسط اخربة صان الحجر (١

وزادت طانيس عظمًا وفخرًا على عهد الفراعنة الاسيويين المعروفين بالملوك الرعاة او الهكسُس. وقد استحبُّوا موقع طانيس لقربها من سواحل آسيَّة موطنهم الاصلي وكانت من ثمَّ يأتيهم المدد فيقوون على كبح جماح اعدائهم. وجعل منشئ دولتهم شلاتي جيوشهُ فوق اخربة هوارو او هواريس عند طرف البرّيَّة شرقًا. وقد رجَّح العلماء انَّ هوارو هذه كانت في موقع بلوزة القديمة. وكان عدد جيوشهِ في هذا المعسكر الحصين يبلغ ٢٤٠٠٠٠ جنديٍ تمكَّن بهم شلاتي وخلفاؤهُ من بعده من فتح كلّ بلاد مصر وضبطها تحت حكمهم. امَّا طانيس فصارت مركز الدولة ومقامًا لدوائرها السياسيَّة وفيها كان يقيم الفرعون ايَّام السلم

وقد بلغت الصناعة والفنون في طانيس مبلغًا عظيمًا لا ترى في اعمال الدول المصريَّة الوطنيَّة ما يتجاوزها نفاسةً. والدليل على ذلك التماثيل والدُّمى وآباء الهول التي وجدها فيها العلّامة ماريت ونقلها الى متحف مصر. الَّا ان هيئة صور الاشخاص تدلُّ على

(١ راجع Mariette: *Abydos* I. 2. *pl.* 28,30

سحنة مختلفة عن سحنة المصريين الاصليين فانَّ عيون اهل هذا العنصر السامي اصغر وانوفهم يغلب عليها الصلابة والتقنّي مع بعض الفرطحة وكذلك ترى وجناتهم اكثر لحماً واضخم عظاماً وذقونهم ناتئة واشداقهم متّسعة · ويلوح على الوجه بعض الخشونة مع ما يعلوها من الشعور الكثّة الشعثة (١

وكان دخول العبرانيين ارض مصر في عهد هذه الدولة السامية · وزادهم نفوذاً عند هؤلاء الملوك وحدة الجنسية وتشابه المهنة في رعاية المواشي فضلاً عمّا اداهُ يوسف من الخدم الجليلة لمصر في سني المجاعة التي سبق وانبأ بقدومها · وكلُّ ما يُروى في الاسفار المقدسة يؤيد راي العلماء في انَّ هذه الحوادث المذكورة في سفرَي التكوين والخروج انّما حدثت في طانيس

ولمّا رُقي يوسف الى رتبة وزير فرعون سعى في خدمة ولي نعمتهِ ومكّنهُ من امتلاك الاراضي التي اقتناها من اهل مصر بما باعوهُ منهُ من الحنطة · وخدم ايضاً صوالح اسرتهِ لمّا نال من فرعون ان يُنزل اخوتهُ في ارض جاسان لخصب تربتها وصلاحيتها لرعاية المواشي (راجع سفر التكوين ٤٧ : ٣ الخ)

على انَّ ملوك الهكسُس لم يلبثوا ان اثاروا عليهم حقد المصريين لما رآهُ اهل مصر فيهم من العادات المستغربة والميل لاهل جلدتهم والاستبداد في الحكم على الوطنيين · مع انَّ السياسة كانت حملتهم على اتخاذ كثير من الاحوال المصرية وتعبُّدهم لآلهة المصريين وتكلُّمهم بلغتهم

لكنَّ الوطنيين لم يطيقوا حمل هذا النير الثقيل على عواتقهم وكانوا ينتهزون الفرصة لتمليك دولةٍ من جنسهم · ولمّا قام الملك « ابوفي » او « ابابي » اراد ان يدفع المصريين الى عبادة آلهتهِ السامية فعاد ذلك عليه بالوبال

وقد وردت تفاصيل هذه الفتنة في شقّة مخطوطة من البردي تُصان في المتحف البريطاني في لندن وهذا تعريبها :

« وكان تياكن قَيْلاً في الصعيد . . . امّا الاعداء فكانوا قد استولوا على هليوبوليس ويملك زعيمهم في هواريس · واختار ملكهم ابابي لهُ الالاه سوتخو كسيّد ولم يعبد سواهُ واقام لهُ هيكلاً محكماً متيناً . . . واحب ابابي ان يكرهُ تياكن على ترك عبادة

(١ راجع رسالة ماريت الى الفيكنت دي روجه بخصوص اكتشافات طانيس

عثمون ليعبد سوتخو فلم يرضَ ». ثم يفصّل صاحب الكتابة ما جرى من الحروب بعد ذلك بين تيا كن بمساعدة الامراء الوطنيين والملك ابابي وكيف دامت هذه الحرب زمناً طويلاً بين الفريقين حتى اسعد الحظّ الملك احمس من العنصر الوطني ففتح هواريس حصن الملوك الرعاة

وقد جاء في صفيحة أخرى وُضعت على قبر ضابط يُدعى ايضاً احمس ما نصُّهُ: « وكنتُ اجري انا احمس ماشياً امام جلالة الملك. ثم ركبتُ السفينة المدعوة « الجلوس في منف » وانتشبت حربٌ بحريّةٌ على المياه المعروفة بمياه طانيس... في جنوبيّ القلعة... وقد فتحنا حصن طانيس عنوةً واسرتُ انا رجلاً وامرأتين فجعلهم الملك لي عبيداً »

ولمَّا دارت الدوائر على الملوك الرعاة خرجوا من ارض مصر ورحلوا الى فلسطين. وفي تاريخ يوسيفوس اليهوديّ أنهم هم الذين بنوا مدينة اورشليم

وليست بحيرة المنزلة كما زعم البعض موقع الحروب التي ورد ذكرها آنفاً بين المصريين والملوك الرعاة لبعد هذه البحيرة عن طانيس. وزد على ذلك ان هذه البحيرة حديثة لا ترتقي الى ما وراء القرن الثاني للهجرة. وكانت التربة التي تغمرها مياه البحيرة اليوم اخصب اراضي مصر. فبقي القول انَّ هذه البحيرة انَّما كانت جنوبيّ قلعة طانيس تكوَّنت هناك من مياه النيل. وهذا ينطبق مع وصف البلد في البابير المذكور. ولعلَّ الملوك الرعاة كانوا احتفروا هذه البحيرة ليردُّوا غارات اعدائهم من جهة الجنوب

وبقيت طانيس دهراً وهي مهملةٌ خراب الى ايَّام رعمسيس الثاني الشهير (انظر صورتهُ ص ٥٥٩) فاراد ان يحييها من رممها فعاد وجدّد ابنيتها وزيّنها بالمباني الخطيرة والآثار الفخيمة كما يشهد عليه عدَّة كتابات منها الكتابة التي سبق لنا وصفها. واتَّخذها رعمسيس لهُ مقاماً في ايَّام سلمهِ لمَّا كانت الحروب والفتوحات لم تشغل عقلهُ. وكذلك صنع من بعدهِ خلفاؤهُ لمَّا كانوا يعهدونهُ في طانيس من لطف الهواء واعتدال الجوّ

ولمَّا كان بنو اسرائيل ممَّن اصابوا في ايَّام الملوك الرعاة حظوى ونجاحاً فما تبدَّلت هيئة الحكومة وعاد الامر الى نصابهِ حتى تشدَّدوا على نسل يعقوب وكاشفوهم بالعداوة



صورة رعمسيس الثاني مأخوذة عن جثتهِ المحفوظة في متحف الجيزة

واثقلوا كاهلهم بالاشغال الشاقَّة واضطرُّوهم الى عمل اللبن لابتناء مدنهم. وقد اشتهر باضطهادهِ لهم ساتي الاوَّل ورعمسيس الثاني ومنفتاح

ولمَّا وُلد موسى وكان حُكم عليهِ بالموت كجميع ذكور اسرائيل عرضتهُ امهُ على المياه بين القصب. ولا شكَّ انَّ ذلك كان قريباً من بلاد جاسان حيث كانت منازل الاسرائيليين. ثمَّ نعلم من الكتاب الكريم انَّ الولد عُرض بين القصب وانَّ ابنة فرعون خرجت الى المكان للاستحمام وليس يحتمل ان يكون خروجها الى مكان بعيد عن قصر والدها فكلُّ هذه الظروف لا توافق غير طانيس التي كانت تمرُّ عليها ترعةٌ من تُرع النيل. وكذلك بلاد جاسان فانَّها قريبة من طانيس اذ كانت تمتدُّ بين مدينتي الزقازيق والاسماعيليَّة الحاليَّتين فيكون موقع طانيس مجاوراً لهما. ولو قيل انَّ هذه

الحوادث جرت في عاصمة أُخرى من عواصم الفراعنة كثيبة مثلًا او منف لتعدَّدت المشاكل واستغلقت وقائع الكتاب بحيث لا يمكن فهمها . بخلاف طانيس فانَّ اخبار سفر الخروج توافقها ايَّ موافقة بحيث لا يشكُّ العاقل ان فيها انجز الله معجزاته لخلاص شعبه

ومن ثم أنّنا نظنّ ايضًا انَّ موسى وهارون انّما دخلا على فرعون في طانيس وانَّ فيها جرت الضربات العشر التي عاقب بها الله عتوَّ ملك مصر وفي رواية سفر الخروج ما يُشعر بقرب حاضرة الملك من ارض جاسان . ألَّا انَّ الزمور السابع والسبعين (وهو الثامن والسبعون في الاصل العبرانيّ) لا يبقي شكًّا في الامر حيث يصرّح بذكر صوعن قائلًا مرّتين (في العددين ١٢ و ٤٣) انَّ « الربَّ اظهر معجزاتهِ لشعبهِ في ارض مصر في صوعن » اعني طانيس القديمة وصان الحاليَّة

ففي هذه الامكنة اذن التي نطأها الآن بالأقدام ظهرت آياتهُ تعالى على يد عبده موسى . هنا انقلبت مياهُ النيل دمًا . هنا ظهرت الضفادع وانتشر البعوض وضُربت البهائم بالموَتان وبُردت الغلَّات واكل الجرادُ الزروع والتحفت تخوم مصر بظلام مدلهمّ وقُتل ابكار المصريين من بكر فرعون وليّ عهدهِ الى بكر آخر عبيدهِ حتى اضطُرَّ مكرهًا الى ان يُطلق اسرائيل فخرج من ارضهِ بيدٍ قديرة ويمين مبسوطة . على انَّ قلب الملك عاد فتصلَّب فسار بخيلهِ ورجلهِ في اثر شعب الله فانتصر الله لعبيدهِ « ومراكب فرعون وجنودهُ طرحها في البحر ونخبة قوادهِ غرقوا في بحر القلزم » (خروج ١٥ : ٤)

امَّا زمن هذه الحوادث العجيبة فقد ظنَّ العلَّامة مسپرو انّها جرت في ايّام ستي الثاني لاضطراب امور الدولة وانتقاض حبلها على عهدهِ . ألَّا انَّ الراي المرجَّح الآن بين العلماء انَّ خروج بني اسرائيل حدث في ملك منفتاح وقد سبق المرحوم الاب يوسف اوتفاج اليسوعي فبيّن ذلك في مقالة مستجادة أثبتت في المشرق في سنته الاولى (٨٨٠—٨٩٢) واستنادهُ فيها الى آثار متحف الجيزة وجُثث الفراعنة المكتشفة حديثًا

وبقيت طانيس في مقامها السامي زمنًا طويلًا . لانَّ الحركة السياسيَّة كانت لا تزال تخطو الى جهات الشمال ولذلك ضعفت ثيبة بعد عظمتها واتَّسعت اعمال مصر السُّفلى وزاد رونق مدنها كبوبسطة (تلّ بسطة) وسائيس الى ان فازت بالسبق مدينة الاسكندريَّة . وممَّن شرَّف طانيس ملوك الدولة الحادية والعشرين التي انشأها

پسيوخانو الاوّل سنة ١١١٠ قبل تاريخ الميلاد وهو الذي فتح ثبة وضمَّ نشر ممالكة مصر فبسط حكمهُ على كل تخومها. ومن هذه الدولة كان پسيوخانو الثاني الذي اقترن سليمان الحكيم باحدى بناتهِ

واشتهرت ايضاً بطانيس الدولة الثالثة والعشرون التي ضبطت عنان الملك من سنة ٨١٠ الى ٧٢١ ق م. وفي عهد هذه الدولة تضعضعت الامور ووجَّه اشعيا النبي كلام نبوَّتهِ على طانيس وملكها فقال (١٩ : ١١—١٣) : لا جرم ان رؤساء صوعن سفهاء ومشورة مُشيري فرعون سخيفة. . . قد سَفِه رؤساء صوعن. . . واضلَّ مصرَ وجوهُ اسباطها ». فما لبثت اقوال النبيّ ان تمَّت وسقطت طانيس عن مرتبتها فتوالت عليها النكبات من جهة الجنوب لمَّا فتحها الملكان الحبشيَّان شباقو وطهارقو. وما فتئ ان استولى عليها ملك اشور اشوربنيبال فجعل عليها حاكماً ثم بلغهُ انَّ اعيانها حاولوا الغدر بنائبهِ ليفتحوا ابوابها للحبش فامر بان تُنهب المدينة ويُرسل شلوداري احد وجوهها المتمرّدين مثقَّلًا بالسلاسل الى نينوى

على انَّ هذه البلايا لم تكسر زهو طانيس فتنبَّأ عليها حزقيال بما هو اعظم وتهدَّدها بالحريق والدمار فصدق قولهُ بعد قليل بغزوة نبوكدنصَّر لمصر ثم في غضون فتوحات ملوك فارس وماداي. على انَّ طانيس احرزت لها بعض الشهرة على عهد نِكْتانيبو ملك مصر لمَّا حاصرهُ فيها احد اعداء دولتهِ اسمهُ طاهو فردَّت المدينة غاراتهِ بمساعدة اجازيلاس احد ابطال مدينة سبرتة لكنَّ الملك لم يعرف لهُ هذه النعمة فهجر اجازيلاس خدمتهُ ومات بعد قليل على سواحل بلاد قيرينيَّة (Cyrénaïque)

ثم صارت الدولة الى الاسكندر فحوَّل عن طانيس وعن مُدن الدلتا الشرقيَّة حركة الإشغال وانتقلت السيادة الى الاسكندريَّة. الَّا ان طانيس لم تزل مدينة معتبرة. وجعلها الرومان رأساً لمقاطعة يدعونها نُوماً (nôme) وانتشرت فيها النصرانيَّة فكان فيها كرسي لاسقف ثم تقهقرت شيئاً فشيئاً حتى عُدَّت كقرية في أيَّام الفتح الاسلامي لا يدلُّ على خطرها السابق سوى تلّ الآخربة التي كانت تعلوها منذ ذلك العهد. وقد شاهدها في هذه الحالة اندريوسي قائد نابوليون الكبير سنة ١٧٩٩ ووجد فيها آثار ساحة كبرى (forum) على شكل تربيع مستطيل وليست هذه الساحة سوى اثار الهيكل القديم الذي سبق وصفهُ. وذكر ايضاً ان فيها التمر الطيّب يتاجر بهِ اهلها مع عرب الصالحيَّة يبدلونهُ بسمكهم المملَّح

اما اليوم فلا ترى في صان الحجر سوى اكواخ حقيرة لبعض الفلّاحين ابتنوها بلبن المدينة القديمة . وقد دعانا شيخهم الى منزله لنشرب عندهُ القهوة . فاجتمع اهل القرية حولنا وكانوا يستغربون ازياءنا الّا انّهم لم يُسمعونا كلمة شتم او احتقار كما ألف امثالهم في غير هذه القرية

ثم ركبنا قاربنا وامرنا الملّاحين بان يصعدا قليلًا النهر . ففعلا واذا بالنهر ينقسم قسمين قسمٌ منهُ يجاور اخربة صان الّا انهُ قليل المياه لا يمكن الخوض بهِ والقسم الآخر اوسع واعمق . فما ابتعدنا عن القرية ميلًا حتى رأينا منظرًا مهيبًا وهو منظر التلّ الذي كنّا نقدّر طولهُ من الف الى الفين متر فاذا هو سلسلة رُبى مستطيلة تُرى على مدى البصر الى مسافة بعيدة . فاخذنا العجب من عظم شأن هذه البقايا الضخمة التي كانت كأنها مباني فخيمة وعمائر فاخرة صارت الى خبر كان

وبينما كنّا نمتّع الالحاظ بهذه المشاهد اذ ظهر لنا منظر آخر على شمالنا عند طرف مزدرعات القرية وهي بحيرة جميلة صقيلة المياه في وسطها الجُزُر النضرة . وما كان الّا السراب غرّ ثانيةً ابصارنا فأبهجها مدّةً . لكنَّ الحرَّ كان محتدمًا والشمس تتضرَّم علينا هواجرها فاسرعنا الى النزول في بقعة هناك وعمدنا الى الاستحمام في النيل . غير ان مجرى النهر كان قويًا في ذلك الوقت لطغيان المياه فكاد احد رفقتي المسيو ب . يغرق مع اتقانهِ فنّ السباحة لو لم يتمكّن بعد العناء من العود الى الساحل

وقضينا ذلك النهار كلّهُ في تلك البقعة لانهُ هبّت ريحٌ شديدة في وجهنا كانت تمنعنا من السير . فتفقّدنا ذلك المكان واذا بهِ جزيرة غاية في الخصب ترى فيها القطن والذرة والدُّخن الى غير ذلك

وعند المساء سكنت الريح ولطفت وَقَدات الجوّ فركبنا القارب لنعود الى برت سعيد . فكان مجرى النهر يزجّنا زجًّا ليّنًا فصرفنا صلب ليلنا نازلين في ترعة المعزّ وكانت الليلة مقمرة تكسو انوارها ضفّتي النيل بمحاسن طبيعيَّة لا يشبع منها النظر . وكان بلوغنا مصبّ نهر المعزّ في غدٍ عند طلوع الشمس ثم قطعنا بحيرة المنزلة متوجّهين الى المطريَّة وكانت غايتنا ان نركب منها القطار صباحًا الى بلدة المنزلة . بيد انّ القطار كان سبقنا فسار قبل وصولنا بثلاثة ارباع الساعة . فاحبّ رفقتي ان يقطعوا الطريق ماشين الى المنزلة وهم يظنّون انّهم يدركونها بعد ساعة . فسرتُ في صحبتهم في طريقٍ ترينها

المزارع واصناف الاغراس على جانبيها الّا انّ الشمس اشتدَّت علينا بعد حين وقاسينا من التّعب والكلال ما لا يعلمهُ الّا الله حتى ادركنا المنزلة ونحن على رَمَق

فلمَّا برَّدنا غليلنا واسترحنا من عنائنا المعنّي زرنا البلدة واسواقها وآثارها وقد لقينا انَّها تشبهُ في بنائها وهندستها ومساجدها الحسنة ومنائرها العالية مدينة دمياط وان كان نهرها المعروف بالبحر الصغير دون ترعة دمياط اتساعاً الّا انَّها تغلب دمياط بنضارتها وبهجة حدائقها وبُسوق اشجارها

وممَّا تذكَّرنا من اخبارها ما جرى للجنرال بونبرت فيها لمَّا حاول فتحها فردَّهُ حسن طوبار شيخُها البطل ولم يزل يدافع عن وطنهِ تارةً لهُ وتارةً عليهِ حتى قُبض عليهِ وأُسر في القاهرة ثم اطلق الجنرال كلابر سراحهُ فعاد الى المنزلة ومات فيها في حزيران من سنة ١٨٠٠

وكان وصولنا في مساء ذلك النهار الى برت سعيد شاكرين المولى على ما رأيناه في هذه الرحلة من مآثر الاقدمين. لكنَّنا اسفنا على انَّ الوقت لم يسمح لنا بزيارة جزيرتي طونة وتنّيس فأجَّلنا زيارتهما لمرَّة اخرى

ذكر الابطال في حرب الترنسفال

للشاب الاديب اسكندر افندي طحيني

كنتُ عند ورودي الى جنوبي افريقية ولعاً بزيارة الاماكن التي جرت فيها المواقع بين الجنود الانكليزيَّة والبوير. وكنتُ اتردَّد على الجنود الانكليز واعجب بما ارى على صدورهم من العدد المتعدّدة الالوان دلالةً على ثباتهم في تلك الحرب العوان

وقصدت مرةً الذهاب الى كولسبرغ لزيارة المدينة وموقع القتال الذي انتشب ثمَّت بين الامتين فاتفق سفري مع احد الضباط الذي حضر المعركة المذكورة بصفة ضابط في المدفعيَّة فبعد ان ركبنا القطار واخذنا نتجاذب اطراف الاحاديث سألتهُ عن رأيهِ في القائد «دي وت» فقال: ان هذا القائد البويري يضارع اسكندر الكبير ونابليون وانيبال بدرايتهِ وحذقهِ ومهارتهِ في الامور الحربية ثمَّ اخذ يقصُّ عليَّ هذا الخبر قال:

بعد فتح جوهنسبور ودخول جنودنا اليها مظفَّرة أُمرتُ بالذهاب اليها فدخلتها مع فرقتي واذ هي في اضطراب عظيم وقلق ليس لهُ مثيل والجنود من مدفعيين ومشاة ورماحة واوكسيين وايرلنديين ومستعمرين يتجولون في شوارعها . وبعد ان استرحت من مشقَّة الطريق دعاني احد اصحابي الى حانة لشرب كأس من الويسكي فاجبتُ دعوتهُ . وقد وجدنا في الحانة نحو عشرين ضابطاً كلهم بالبزَّات الرسمية وعلى الباب كثير من الخيل الملجمة يحرسها الغلمان . فما كدنا ندخل الّا وتقدم الينا احد الضباط وكان ذا لحية خفيفة فكلمنا بانكليزية فصيحة قائلاً : « يقولون ان دي وت بالمدينة » فاخذ صاحبي يقهقه ويقول انني اول البارحة بعد معركة يسيرة تركت دي وت على مسافة الف ميل من هنا . فاجابهُ الضابط المذكور : « لقد اصبت لأنني انا كذلك اعهد انهُ في الجبال الغربية »

ثم سألنا ان نشرب قليلاً من الويسكي وامر الغلام ان يقدم اقداحاً لبقية الضباط وبعد ما شربوا اخذوا يتجاذبون الحديث وطفق ذلك الضابط المجهول يتكلم عن معسكر دي وت ويستقصي كذلك القول عن العسكر الانكليزي وبعد ان اكمل رشف قدحهِ قال لصاحبي : « اذاً تؤكد ان دي وت ما قدر يدخل المدينة » فاجابهُ صاحبي على الفور : نعم اني على يقين من انهُ لم يدخلها . ثم انهُ ناول صاحب الحانة قطعة من الذهب عليها صورة الملكة وبعد ان سلم علينا السلام العسكري امتطى صهوة جواد اسود من اطايب الخيل واخذ ينهب بهِ الارض نهباً فخلناه ذاهباً الى فرقتهِ فتركناه وشأنه والتهينا عنهُ بالحديث

ولكن لم يمضِ علينا بضع دقائق حتى رأينا القبطان . . . قادماً مذعوراً ووجهه احمر كالدم والعرق ينضح من جبينه فدخل الحانة واخذ يتفقَّد كل جوانبها فضحك الضباط من هيئتهِ وقال لهُ احدهم : « كأني بك تطلب دي وت بيننا »

فاجابهُ : اجل او ما رأيتم ضابطاً اسمر اللون لابساً بزة ملازم وراكباً جواداً اسود ضخماً

قالوا : نعم رأيناه وقد كان هنا من مدة وجيزة

— واين ذهب ؟

— مرَّ من هذا الشارع

— هذا هو دي وت بعينهِ

فحينئذٍ اخذ منّا الاضطراب مأخذه وقام الحضور في الحانة المذكورة وخرج الكل الى خارج علّهم يجدونه لكنّنا طلبنا اثرًا بعد عين وعضضنا الانامل ندماً على فراره

قال الراوي : فخرجتُ من هناك وانا افكر في ذلك القائد البطل وقلت : هكذا تكون محبّة الوطن وشهامة الفرسان والّا فلا

ولنعد الآن الى سياق الحديث فلمّا وصلنا كولسبرغ غادرنا القطار ومشينا قليلًا حتى اذا وصلنا الى محل الواقعة قال لي رفيقي : هذه ساحة الوغى فشخصتُ ببصري نحو المكان فاذا هو وهاد خضرة وسهل فسيح ووادٍ بعيد فيه بعض اشجار وكنت ارى غابات مقطوعة او محروقة وبيوتاً مهدومة وبنادق وسلاحاً مكسورة كما كنت اطالع في التواريخ عن مواقع القتال

وكانت مخيّلتي تصوّر لي الواقعة كاني احضرها . وبقيتُ مليًّا هذه التفكرات تجول في خاطري حتى جذبني رفيقي وقال : « هناك كنا واقفين » . واراني جُبَيلًا مكللًا ببعض اكياس مملوءة رملًا ثمّ اردف : « نعم كنّا هنا وراء هذه المتاريس وكانت البوير قرب الجهة الشمالية على هذا الجبل الذي توهم العين انهُ على بعد خمسمائة متر وهو في الحقيقة على بعد كيلومترين وكنّا مختبئين وراء هذا الجبل نطلق المدافع فكانت الطلقات تذهب كلها خطأً لأننا كنّا لا نحسن قياس المسافة وما دربنا بذلك الّا بعد خامس طلقة فصرنا نطلق المدافع على بعد الف وخمسمائة متر بدل الخمسمائة وذلك لعمري فرق يُذكر »

فسألتهُ حينئذٍ : وهل كان يخطئ البوير كذلك . قال : « كلّا لأنّهم معتادون طرق بلادهم . وبينما كنّا نبذل الجهد لكي نحكم طلقاتنا كان رصاصهم يضرب الحجارة التي كنّا وراءها وبعضها كانت تخرقهُ قوة الرصاص فتُطيرهُ شعاعاً علينا وكان احد الجاويشية بقربي وراء صخر فيه شقّ متطاول فدخلت رصاصة من الشقّ اليه فقتلتهُ لساعته ورفع آخر رأسهُ من فوق المتاريس فوقع للحال مضرَّجاً بدمهِ واما انا فان رصاصة اصابتني باعلى قبعتي فاطارتها » . وكان الضابط يحكي كل هذا برزانة كأنهُ يروي لي سِفرًا من أساطير الاوّلين

— وهل قُتل منكم خلق كثير ؟

— اكثر القتلى بين المدفعيين فانّهم كانوا اذا اطلقوا طلقة واحدة جاءهم مطر من الرصاص يسقط على المحل الذي خرجت منهُ الطلقة . وبعد ان دفعنا البوير

امامنا من جبل الى جبل رأينا ان طلقاتهم تخفُّ قليلاً قليلاً فما وصلنا الى محلهم حتى رأيناه بلقعاً ليس فيهِ غير بعض اسلحة محطمة ألقاها البوير عنهم قبل فرارهم ولم نزَ لهم اثرًا في الجبال الموازية لنا ولكنهم خسروا كثيرين منهم. ألا ترى هذه الوهدة المغطى اكثرها بالحجارة الضخمة والتراب ؟ هناك دفنوا قتلاهم

— هلمّ معي فاني ارغب في زيارة القبور

— نعم ولكن تعال اولاً وانظر قبور جنودنا

فذهبنا الى محل مُحاط باسلاك من الحديد وفي الوسط ثلاثة قبور كبار والى جانبها قبور صغار متلاصقة مصفوفة كالعسكر اوان الاستعراض

قال: « فالثلاثة القبور الكبار هي قبور الجنود فانهم كانوا يجمعون جثثهم في حفرة واحدة ويهيلون عليهم التراب واما الرموس الصغار فهي رموس الضباط »

فجثوت حينئذٍ راكعاً وصليت لراحة تلك الانفس صلاة وجيزة واما رفيقي فانهُ وقف وقفة الجندي بلا سلاح ورفع قبعتهُ واطرق في الارض

ثم بدون لفظ كلمة ذهبنا الى قبور البوير فاستدللنا من قلّة هندستها انّها حُفرت على عجل. وهناك كذلك رفع الضابط الانكليزي قبعتهُ وقدمتُ لله صلاة حارّة لاجل اولئك الابطال الراقدين هناك وقفلنا راجعين الى حيث اتينا

يمين العلي

رواية تاريخية للاب س. ت اليسوعي (تابع)

الفصل الثامن

خيبة الآمال

كانت الشمس كشفت جلبابها اذ دخلت الأمة العجوز دوروتيا مخدع سيّدتها وهي تطأ الارض همساً ثم عكمت السجوف وفتحت النوافذ فارسلت الغزالة بانوارها واضاءت المكان فسطعت آنية الحجرة وشعَّ فولاذ دمشق وبلّور صيداء وآبنوس الهند وكانت يهوديت غانصةً في مجر النوم في سرير بديع النقش تستر وجهها كلّة

من الانسجة الرقيقة الشفافة. فوقفت دوروتيا امامها شاخصةً اليها وهي تقول في نفسها: «ياليت سيدتي تنام نوماً غرقاً الى ساعة رجوع والدها فتقتصد بذلك على نفسها آلاماً ودموعاً مرةً». ثم همّت بالخروج واذا بالفتاة تنفّست الصعداء. ورأت بتوأمتيها فرأت عبدتها الامينة فقالت:

ما الخبر يا عزيزتي؟... ليس لديكِ من خبر؟... اوّاه ما اشقى حالي وانا في هذا الانتظار المُضني

قالت هذا وعادت الى بكائها. امّا دوروتيا فلم تدرِ كيف تعزّي سيدتها بعد ان منّتها مراراً بالفرج القريب. لكنّها خرجت اسيفة تستدعي الاماء الموكولات بلبسها وهندامها

فلمّا دخلن تجلّدت يهوديت واخفت دموعها عنهنّ ثم سلّمت نفسها الى ايديهنّ. فكنت ترى هذه تسخّن الماء على كانون لتغسل راسها وتلك تهيّئ الغسول واخرى تدوك الطيوب بالصلاءة او تحمي الحديد لتكوي خمارها وملاءتها. وبينما كانت الاماء الواحدة بعد الاخرى تقوم بمهام مهنتها كانت يهوديت جالسةً على ديوان وهي طوع حركاتهنّ لكنّ الهواجس كانت تزدحم عليها وتتناوب في عقلها كأنّها السهام تتعاورها

كيف لا وانّها كانت منذ شهر ونيّف تعدّ الساعات والدقائق فتحيي آمالها برجوع والدها. وكانت قضت في جبيل شهراً تامّاً لتسلّي همومها وتخمد لظى قلبها الّا ان الشهر كان قد تغرّط كالسمط ولم يَلُح لها بارقة أمل... ثم عادت الى بيروت لعلّها تستقبل قريباً اباها وهي تعلم ان حبّهُ الوالدي يدفعهُ الى العود السريع الى دارهِ لكنّ رجاءها بقي خائباً... وها قد صار منتصف شهر آذار ولم تدرِ شيئاً من احوال والدها فانهُ لم يقفل راجعاً بل ولم يرسل الى ابنتهِ رسالة تطمّن بالها

وربّما كانت تصعد الى سطح دارها محدقةً بنظرها ساعات نحو البحر لعلّها ترى سفينةً تُقبل من جهة الجنوب وتأتيها بخبر من ابيها... الّا انّ آمالها خابت من جهة البحر كما عيل صبرُها من جهة البرّ

وكانت بخلاف ذلك فرقٌ من صعاليك اليهود تتوالى فارّةً من امام الرومان ملتجئةً الى بيروت وضواحيها لتسدّ جوعها وتفرخ روعها. وكان كثيرون من هؤلاء الهاربين ضربوا خيامهم حول المدينة يعيشون بالصدقات او يرتزقون ببعض الصنائع الخسيسة. وكانت يهوديت تتردّد عليهم لتخفّف اوجاعهم وتحسن اليهم بيد سخيّةٍ الّا

أنها كانت اذا سألتهم عن ابيها لم يجيروا جواباً وينكرون أنهم راوه او علموا بخبره

تلك كانت افكار يهوديت في ذلك الصباح عند قيامها من نومها بينما كان حشمها يتسارعون الى خدمتها ويسعون بخليها

ولما نجز العمل استدعت اثنين من عبيدها وارسلتهما ليتجسسا لها الاخبار عن قومها فعادا بعد ساعة من الزمن واخبراها بما سمعا اذ مرّا عند ثكنة العسكر فكان الجند مجتمعين يتكلمون عن الحرب فقال الواحد منهم: « بئس حال اليهود في اورشليم وهم اعداء نفوسهم فانهم منقسمون الى احزاب متباينة يأكل بعضهم بعضاً كالذئاب. ولا حاجة الى طيطوس ان يحاربهم فانهم اذا داموا مدةً على هذه الحالة سقطت المدينة بلا حرب بين يديه كغنيمة باردة »

*

وبينا العبدان يرويان ما سمعا اذ طرق سلوانوس باب الغرفة فدخل على سيدته كاسف الوجه قلق البال وقال:

« لهفي على سيدتي ! انّ اورشليم تتّقد اضطراماً والحرب قائمة على ساق بين اهلها ! »

فالتُمع لونُ يهوديت وعلا وجهها الاصفرار واحسّت باحشائها تتمزّق لهذا الكلام. ثم سألت سلوانوس بصوت يرتجف:

ومن بلّغكَ هذه الاخبار ؟

— هو رجل ورد في هذا الصباح من يافا وقد خرج من اورشليم منذ اسبوعين

— هلمّ به للحال

فدخل سلوانس بعد برهة بشيخ ذي اسمال خلقة وسخة منتعل بحذاء متقطّع وقد تغضّن جلدهُ. فلمّا رأتهُ يهوديت اقشعرّ بدنها ثمّ حدجتهُ بالنظر وسألتهُ ما اسمهُ.

قال: اسمي يوناثان

— واتيتَ من ...

— من اورشليم. برحتُها منذ خمسة عشر يوماً وقد فررتُ هارباً فقطعت ركضاً المسافة بينها وبين يافا ومنها ركبت السفينة « الخطّاف » التي اوصلتني اليوم مرفأ بيروت

— وهل تعرف التاجر صموئيل ؟

— لست اعرفهُ

فوقع هذا الجواب كضربة سيف على قلب يهوديت فسكتت حيناً ثمَّ قالت: وماذا يجري في اورشليم

« كيف اصف ما يجري فيها ومجرَّد الفكر في احوالها يهدُّ رُكني ويطير الرقاد عن عيني. اعلمي أيتها السيّدة انهُ لم يحلّ بأمّتنا منذ بدء تاريخها حتى اليوم شدائد كالتي تدهمها الآن. فانَّ هذه البلايا قد أَنست نبوكدنصَّر لمَّا احرق قدس الأقداس وجلا الشعب الى بابل. وكأنَّ لعنة يسوع الناصريّ التي لعن بها المدينة المقدَّسة قبل اربعين سنة قد حلَّت باهلها واذاقتهم الموت الوانًا »

قال الشيخ هذا وسكت لسانهُ ونطقت عيونهُ حتى اخضلَّت لحيتهُ بالدموع وكان يلتوي في غضون ذلك ويعقد اصابعهُ متلهّفًا يائسًا فلمَّا سكن جأشهُ اردف قائلًا:

انَّ في اورشليم اليوم ثلاثة جيوش انقضَّت عليها انقضاض النسور على فريستها حتى قبل ان يحاصرها الرومان. فترينَ في وسط الهيكل العازر بن سمعان وذويه وهم قد تحصَّنوا هناك يدنسون قدس الأقداس بارجاسهم ويستبيحون تقادم الربّ. ويرمون اخوتهم بالنبال من اجنحة الهيكل حيث كان يسهر سابقًا ملائكة إله السلام. وفي ساحات الهيكل وسطوحهِ الدانية قد نصب حنًا من جسقالة (جش) كوشهُ ومجانيقهُ ويصوّب اصحابهُ سهامهم الى المقدس لا يهابون غضب ربّ الجنود. امَّا المدينة فقد صارت طعمةً لسمعان جيوراس وعصبتهِ فيعملون فيها السيف والنار ولم يُسمع في الشوارع والازقَّة غير عويل النساء وصراخ الصبيان وجلبة المحاربين... لقد قُضي الامر وعمَّا قليل لا يبقى من اورشليم غير اسمها مع آثار خرابها... ونحن بني العهد سوف نتيه في اقاصي المعمور وعلى جبهتنا آية اللعنة والقنوط »

قال هذا وعاد الى بكائهِ وزفراتهِ... امَّا يهوديت فعمل فيها قول الشيخ فاغرورقت عيناها بالدموع ووكفت معهُ عبراتها برهةً ثم جثت على ركبتيها وتلت بقلبٍ انعشهُ الايمان « مزمور الرجاء ». فما سمع المسكين اوَّل آياتهِ حتى صلَّى معها وامتزجت صلاة ابنة البطارقة والفقير الصعلوك اللذين تساويا بالتواضع والايمان

وكانت الصلاة لقلبيهما كرهم لطَّف اوجاعهما واعاد لهما الرجاء الذي لاح على محيَّاهما

وقضت يهوديت ذاك النهار تتقسَّمها الهموم وتتنازعها الهواجس الَّا انَّ ثقتها

بالله كانت تسند قواها . وفي غد ذلك النهار اتاها سحرًا ساعٍ كان اجتز من يافا في مركب وجهتهُ صيداء فنزل فيها وقصد بيروت براً . وكان معهُ كتاب من صموئيل الى ابنته يهوديت

فلما استلمتهُ الفتاة من يدهِ وجب قلبها وترقرق الدمع في عينها فرحاً فاسرعت الى فضّ ختمه ومطالعة مضمونه . فاذا تاريخهُ ٢٧ شباط يقول فيه صموئيل « انهُ لم ينجز اشغالهُ بعد في اورشليم ولم يتقاضَ ديونهُ فلا يمكنهُ ان يبرح المدينة المقدَّسة قبل العشرين من اذار بعد الفصح . ثم انهُ في حاضرة اليهوديَّة مطمئن البال لا خوف عليهِ من اهل الشَّغب »

فلما قرأت يهوديت هذه الاسطر التي كانت تأمل منها خبر نجاة ابيها تراكت عليها الاحزان وتوزَّعتها الاشجان فرأت نفسها كئيبة لم يبقَ لها في الدنيا صديق ولا سَنَد . واخذت تلعن المال الذي اعمى حبُّهُ قلب ابيها فهوَّرهُ في تهلكة لا مناص لهُ منها . وكانت تتعجَّب كيف اهل اورشليم لم يدروا بعد بما يتهدَّدهم من المخاطر وكيف يجهلون ان جيوش الرومان كادت تبلغ ابواب المدينة المقدَّسة

*

وفي عصر ذلك اليوم كنتَ ترى بيروت في حركة غير مألوفة . فكان الاهالون يسيرون الى ساحة البلدة فيتناقلون خبرًا شاع منذ ثلاث ساعات جاء بهِ البريد وهو ان طيطس بلغ اورشليم قبل ان يدري اليهود بقدومهِ فاحدق الرومان بالمدينة وضغطوها بحلقةٍ من حديد . وكان بدء الحصار في سلخ شهر شباط ثاني يوم بعد تاريخ مكتوب صموئيل . وكان طيطس ساعة وصولهِ نصب آلات الحرب فوق جبل الزيتون

فوقع هذا الخبر في قلوب اهل بيروت وقعاً مختلفاً . فكان الرومان والسوريون يدعون لطيطس بالظفر ويتفاءلون بالفتح القريب . امَّا اليهود فانقضَّ عليهم الخبر كصاعقة فاقفلوا حوانيتهم وتواروا عن اعين القوم لئلاَّ تحدث فتنة بسببهم فيذهبوا ضحيَّة الثائرين كما قُتل منهم قبل ذلك العهد باربع سنوات عشرة آلاف نفس بدمشق

وكان حاكم المدينة امر فرقة من الرمَّاحة الراكبين بان يقسموا بينهم حارة اليهود ليمنعوا عن اهلها كلَّ سوء . فاثار منظرهم الخوف والرعبة بين بني اسرائيل . ولحتهم يهوديت من نافذة دارها وكانت تجهل الخبر الشائع في المدينة فارتجفت فرائصها وسألت

ما الأمر فطنّن بألما الخدم قائلين: « ليس هــذا شيئاً انّما الجنود يتبادلون الاحياء كمألوف عادتهم »

فسكتت ثم لمحت بعد قليل بعض اشارات من عبيدها كأنّهم يتغامزون ويهمس بعضهم الى بعض فاحسّت انّهم يريدون ان يخفوا عنها خبر فاجعة عظيمة فما تمالكت إن صرخت: « قد مات . . . أليس الامر كذلك . . . »

قالت هذا ولم تدع للحضور وقتاً للجواب فسقطت مغشيًّا عليها . فتوارد العبيد واجتمعوا حولها وحملوها الى غرفة منامها فأضجعوها على فراشها وانعشوا قواها ببعض المنعشات ففتحت عيونها بعد قليل وادارت الحاظها حولها . ثم اجهشت بالبكاء .

امّا امتها دوروتيا التي كانت بقربها فانّها ضمّتها الى صدرها قائلة: « كلّا كلّا يا حشاشة القلب . . . لم يمت والدكِ . . . انهُ حيّ وسترينهُ عمّا قليــل . وما الخبر الذي يتناقلهُ الناس سوى خبر حصار الرومان لاورشليم . ولعلّهُ خبر مُبتسر وإن صحّ فليست المدينة على شفا الخراب ويمكنها الدفاع زمناً طويلًا . فلا يحسن بكِ ان تتوهمي الاوهام الكاذبة وما ادراكِ ان يكون ابوكِ علم بقرب الرومان فخرج من المدينة قبل الحصار »

وكانت يهوديت تسمع كلام أمتها وتحاول احياء رجائها الّا انّ الخوف على حياة والدها غلب عليها فجعلت تذرف الدموع وهي تقول: كلّا كلّا انّهُ لم يبقَ املٌ لخلاص المدينة . . . والويل لابي ان لم يخرج منها . . . ليت شعري كم يبرّح بهِ العذاب . . . وانا لا اعود انظر الى وجههِ . . .

وفيما هي تفوهُ بهذه الالفاظ اذ دخل الطبيب كتازياس وكانت دوروتيا اسرعت فارسلت تستدعيهِ . وكان كتازياس يعالج بيت صموئيل منــذ زمن طويل ويحبّ يهوديت محبّة الاب لابنتهِ . فلمّا رأى الفتاة اشربها دواءً مسكّناً وجلس عند فراشها ينتظر مفعول الدواء . فما مرّ عليه نصف الساعة حتى كلّت اجفانها فنامت نوماً قلقاً كنوم المحموم الذي يتململ على فراشهِ فلا يذوق الراحة الّا انهُ يسهو عمّا يجري امامهُ

ثم قام كتازياس وقال لدوروتيا: لا تدَعوا الفتاة وحدها فان الليلة القادمة تكون سيّئة

وصدق الطبيب بما قال فانّ حال المريضة كانت تنذر بالاهوال . . . فانّ يهوديت كانت ترى في نومها الاحلام المريعة فتارةً تردّ بيدها عدوًّا غير منظور وحيناً تصرخ:

« لا تُلحقوا اذى بابي ». وكانت تحاول في بعض الاحيان ان تقوم من فراشها وتتخلّص من ايدي العبيد الذين يمرّضونها فتقول: ألا ترون ابي في العذاب ما لكم تمنعوني عن مساعدته وانقاذه ». وبقيت كذلك الى منتصف الليل حيث خمدت حرارة الحمّى قليلاً عنها ثمّ تركتها عند الصباح فسقطت قواها وبقيت لا حراك بها . . . وكان الخطر قد زال الّا انّ عبيدها كانوا يخافون جزعها عند يقظتها (ستأتي البقيّة)

مطبوعات شرقية جديدة

LITTÉRATURE ARABE

par Cl. Huart, *Paris, Armand Colin*, 1902 IX - 470

فنون الادب عند العرب

ان تقدّم الدروس العربيّة في الاصقاع الاوربيّة حمل كثيرين من المستشرقين على وضع كتب في لغات شتّى يبحثون فيها عن تاريخ آداب العرب منذ ايّام الجاهليّة الى عهدنا اشتهر منهم همّر برغشتال (Hammer-Purgstall) في النمسا وفيليب دي بردي (F. de Bardi) في ايطالية وكُرْكاس (V. Guirgass) في روسيّة واربوثنوت (Arbuthnot) في انكلترة ومؤخرًا كرل بروكلمان (C. Brockelmann) في المانية. فلم يرضَ المستشرق الشهير كليمان هوارت ان تُحرَم فرنسة كتابًا يفيد ابناءها علمًا عمًّا تحتويه اللغة العربيّة من الكنوز الادبيّة ويوقفهم على تاريخ ائمّة كَتَبتها في كل عصر وقد ساعدت المؤلف على هذا العمل الجليل دروسهُ السابقة واسفارهُ المتعددة وصحبتهُ لعلماء الشرق فجاء كتابهُ سفرًا نفيسًا جليل الفائدة منسجم الانشاء طليّ العبارة لا يستغني عنهُ اديب

على ان كثرة ما يقتضيه كتاب مثل هذا من المطالعات والابحاث يمهّد العذر لكاتبه في ما سها عنهُ او وهم فيه بعض الاحيان. فمن ذلك انّنا نرى فصلهُ في شعراء الجاهليّة قصيرًا غير مستوفى ضرب فيه صفحًا عن كثيرين من الشعراء المجيدين كالمرقّشين وسلامة بن جندل والمثقّب العبدي وغيرهم. وقد فضّل في هذا الفصل (ص ١٤) شعر طرفة على غيره من الشعراء لما تتضمَّن قصائدهُ من الحكم مع انّ للنابغة الذبيانيّ ولزهير

ابن ابي سلمى حكماً مثالها وافضل منهـا. وفيه لم يميّز بين الخنساء بنت زهير التي لا يُعرَف لها سوى ثلاثة ابيات في رثاء ابيها (راجع كتابنا رياض الادب في مراثي شواعر العرب ١١٥) والخنساء السُّلَمية بنت عمرو راثية صخر ومعاوية التي نشرنا ديوانها مع شرحهِ. وقد انكر فيه ايضاً (ص ٢٩) نصرانيَّة امية بن ابي الصلت التي اثبتناها في المشرق (٤:٥٧٣) ردًّا على الهلال. وكذلك رددنا على بروكلمان (في المشرق ١: ٥٢٦) قولهُ بان النابغة الذبياني وزهير والاعشى لم يدينوا بالنصرانيَّة وقد استـندنا الى الصغاني وصاحب تاج العروس وبعض المستشرقين الحدثين كولهوزن

وفي الفصل الاخير امور عديدة لم يتثبَّتها صاحب الكتاب لو اردنا ذكرها بالتفصيل لاتَّسع بنا الكلام من ذلك انهُ لم يميّز (ص٤١٢) بين نيقولا ومارون نقَّاش. وكذلك (ص ٤٠٨) لا نعرف ديوانًا للاديب الياس افندي باسيل وانَّما لهُ مجموع من اقاويل الشعراء دعاهُ مجموعة الازهار — وكذلك لا نرى داعياً لنظم يوسف بك كرم في عداد الكتبة (ص ٤٢٥). وليس الدرّ المكنون (ص٤١٠) «كتاباً في اللغة» بل في الصنائع والفنون. ولا «محيط المحيط ذيلًا للقاموس» (ص ٤٠٩). وبخلاف ذلك كان حقُّهُ ان يذكر في جملة ادباء زماننا الشيخ محمَّد عبده والشيخ ابراهيم الاحدب والامير شكيب ارسلان ومن النصارى اولاد الشيخ ناصيف اليازجي والمطران جرمانوس الشمالي وعبد الله البستاني وغيرهم ممَّن لهم اليد الطولى في تعزيز الآداب ورفع منار العربيَّة

CORPUS SCRIPTORUM ORIENTALIUM
Scriptores Syri - Chronica minora - Pars prior
edidit et interpretatus est, Ign. Guidi

مجموع تآليف كتبة النصارى الشرقيين

سبق لنا (في المشرق ٦:٣٣٤) ذكر هـذا المجموع الذي باشر بنشرهِ قومٌ من نخبة العلماء. (١) ويسرّنا اليوم ان نبشّر القرَّاء بظهور باكورة هذا المشروع وهو جزء من القسم السريانيّ يحتوي تاريخين احدهما التاريخ الرهاوي السريانيّ الذي يرتقي عهدهُ الى القرن السادس للمسيح وهو يتضمَّن اخبار مدينة الرها الشهيرة وملوكها الاباجرة من سنة ١٨٠ قبل المسيح الى ٥٤٠ بعد الميلاد نقلًا عن نسخة قديمة في الخزانة الواتكانيَّة

١) من اراد الحصول على هذا المجموع فليطلبهُ من احد هذين الكتبيَّين: Leipsig: *Otto Harrassowitz* Luerstrosse, 14 = Paris: C. *Poussielgue* 15 rue Cassette

كان العلّامة السمعاني نشرها في المكتبة الشرقية ببعض تصرُّف فاعاد الاستاذ الفضال غويدي طبعها وشرحها شرحًا جديدًا. والتاريخ الثاني هو تاريخ غفلٌ لا يُعرف صاحبهُ وجدهُ هذا الاستاذ الهمام في جملة السينودسات النسطوريَّة كُتب نحو السنة ٦٨٠ للمسيح يشتمل فوائد جمَّة عن اخبار الدولة الساسانيَّة وظهور العرب في العراق. وكان الاستاذ المومأ اليه نشرهُ اوَّلًا في ١٨٩١ ثم كرَّر طبعهُ الآن ونقلهُ الى اللاتينيَّة مستفيدًا من ملاحظات العلماء بهذا الخصوص ل. ش

شذرات

انجيل مخطوط افادنا من بزمار حضرة الاب الفاضل القسّ يوحنَّا قوزيان انهُ « عثر في ماردين على انجيل عربيّ مخطوط تاريخ كتابته سنة ١٧٠١ وهو مكتوب على ورق لمَّاع صفيق على يد الفقير عيسى بن عازريه وهو الشمَّاس شكر الله ابن فرج الله المارونى الارثذكسي » ثمَّ نقل منهُ حضرة الكاتب فصلين نثبت منهما قسمًا بحرفهِ لتعريف الكتاب

« فلمَّا اتغدوا قال يسوع لسمعان بطرس: يا سمعان ابن يونا اتحبني اكثر من هولاي. قال لهُ: نعم يا رب انت تعلم انني احبك. قال لهُ: ارعى غنمي. ثمَّ قال لهُ ثانيةً: يا سمعان ابن يونا تحبني. قال لهُ: نعم يا رب انت تعلم اني احبك. قال لهُ. ارعى خرافي. فقال لهُ دفعة ثالثة: يا سمعان ابن يونا تحبني. فحزن بطرس لانهُ قال لهُ تحبني ثلاث مرات. فقال لهُ: يا رب انت تعرف كل شي. وانت تعلم اني احبك. قال لهُ يسوع: ارعا نعاجي الحق الحق اقول لك انك اذ كنت شابًّا كنت تزنّر ذاتك وتذهب حيث تشاء. ولكن اذ شخت ستمد يديك واخرون يزنّرونك ويذهبون بك حيث لا تشاء. وانما قال هذا ليريه باي موتة هو عتيد ان يمجد الله. ولما قال هذا قال لهُ: اتبعني (من يوحنا ٢١: ١٥–١٩)

وقد قابلنا بين هذه الترجمة وما لدينا من النسخ المختلفة التي ذكرناها سابقًا في المشرق فاذا هي ترجمة مستقلَّة ونظنُّها منقولة عن الترجمة السريانية. امَّا كاتبها فلا نعلم شيئًا من امرهِ وان وقف احد القرَّاء على شيء من اخبارهِ فافادنا بهِ شكرناهُ سلفًا كما نشكر حضرة الاب قوزيان على تعريفهِ هذا الأثر

الرُّكُوسيَّة يستلفت حضرة الاب انستاس الكرملي مكاتبنا النقَّاد نظر القرَّاء الى نصّ ورد في تاج العروس للسيد المرتضى في مادَّة ر ك س وهو« الركوسيَّة

بالفتح قومٌ لهم دين بين النصارى والصابئين ورُوي عن ابن الاعرابي انهُ قال: هذا من نعت النصارى ولا يُعرب». فحضرتهُ يستدلُّ من هذا القول على انَّ في اللفظة تصحيفًا وانَّ المراد بالركوسيَّة نصارى كورس او قورس الذين تكلَّم عنهم حضرة الاب لامنس في بحثهِ الجغرافي عن سيرة القديس مارون الناسك (المشرق ٦:٢٤٣ و٣٤٧) ثم يورد الكاتب البارع كلامًا لابن الاثير في تاريخ سنة ١٥ للهجرة وللبلاذري في كتاب فتوح البلدان جاء فيه ذكر قورس واهلها النصارى الذين صالحوا المسلمين على يد راهب من رهبانهم. وينهي كلامهُ طالبًا من القرَّاء ان يبحثوا عن الركوسيَّة في كتب العرب وغيرهم لعلَّهم يجدون ما فيه فائدة لتاريخ بلادنا

الطاعون في الهند نشرت الحكومة الانكليزيَّة احصاء رسميًّا للمطعونين في الهند منذ ظهور الوباء سنة ١٨٩٦ الى السنة الجارية يُستفاد منهُ انَّ العدوى لا تزال في فشوّ وانتشار. ففي سنة ١٨٩٦ كان عدد الموتى بالطاعون في كل الهند ١٧٠٠ نفس ثم بلغ السنة ١٨٩٧: ٥٦٠٠٠ ثم ١١٨٠٠٠ سنة ١٨٩٨ ثم ١٣٥٠٠٠ سنة ١٨٩٩. ثم نقصت معرَّتهُ سنة ١٩٠٠ فمات فقط ٩٣٠٠٠ لكنَّهُ في العام القابل ذهب بحياة ٢٧٤٠٠٠ نسمة وتضاعف هذا العدد في السنة ١٩٠٢ فبلغ ٥٧٢٠٠٠. ولعلَّهُ يتجاوز هذا العدد في السنة الجارية لانَّ ملاك الموت قطع اعمار ٣٠٠٠٠٠ من اهل الهند في الشهور الثلاثة الاولى منها. وقد مُنيت خصوصًا في الهند بهذا الداء المشؤوم مقاطعات بنجاب وبنغال وبماي وصارت حاضرة بماي تُدعى اليوم مدينة الموتان

ملعب مليطة اكتشفت بعثة علميَّة من الالمان في مدينة مليطة (Milet) من برّ الاناضول آثارًا قديمة معتبرة في جملتها كنيسة وسوق ذات طبقتين ومنها مرسح كبير ازالت عنهُ الردم فأُعيد الى هيئتهِ الاصليَّة. فاذا هو اثر جليل ينبئ بطول باع القدماء في الهندسة. وهو متسع الجوانب يبلغ وجههُ ١٤٠ مترًا على شكل نصف حلقة ذو درجات متعدّدة وفي اعلاهُ شرفات تكلَّلهُ قيل انهُ اعظم ملعب يعرف لليونان في الشرق كان يستوعب من الحضور عشرين الف شخص

معرض هانوي قد نال الرهبان الدومينيكيون واليسوعيُّون في هذا المعرض امتيازات خُصُّوا بها لما عرضوهُ من التآليف العلميَّة خصوصًا في العلوم الطبيعيَّة والفلكيَّة. وقد منحت اللجنة الموكولة بفحص المعروضات جزاء فخريًّا لمرصد

اليسوعيين في الفيليبين واثنت على رسومهم وجداولهم الجيولوجيَّة وتصاوير حركات الافلاك وخصوصاً على مقياس الاعاصير الذي اخترعهُ الاب ألغه الذي ينذ بالانواء في كلّ بحور الشرق الأقصى بيومين قبل حدوثهــا. وقد اشترت حكومة الولايات المتَّحدة بثلثمائة الف فرنك مجلَّدين ضخمين وضعهمـا اصحاب المرصد المذكور في الرصود الفلكيَّة وغيرها فنشرتهما على نفقتها واعطت مؤلّفيها الفي نسخة منهما

أسئلة وأجوبة

س سأل حضرة الخوري ف. ش: ١° ما السبب الذي حمل الاب الاقدس على ان يضيف الى طلبة العذراء «يا امّ المشورة الصالحة». ٢° لاي سبب جُعل محلّها بعد ذكر «الامّ العجيبة». ٣° هل يلزم لاستعمالها في الكنائس اجازة اسقف المحلّ

دعاء جديد في طلبة العذراء

نجيب على (الاول) ان سبب اضافة الدعاء «يا امّ المشورة الصالحة» هو انتشار التعبُّد لصورة عجائبيَّة للبتول معروفة بهذا الاسم في ايطالية نالت الكنيسة بواسطتها نعماً جزيلة يُقام لها عيد في ٢٦ نيسان. وعلى (الثاني) انَّ ذكر «امّ المشورة الصالحة» جعل بعد ذكر «الامّ العجيبة» لما بين الدعائين من ائتلاف اللفظ والمعنى. وعلى (الثالث) انهُ لا حاجة ان يُنتظَر امر خاص من الاسقف لاستعمال هذا الدعاء. وانّما العادة المألوفة ان ينشر الاسقف اوامر المجمع المقدَّس حبًّا بالنظام ووحدة العمل

س وسأل من حدتون حضرة الخوري نعمة الله نصّار هل النباتات والعقاقير الموصوفة في كتاب برء الساعة (المشرق ٦: ٢٦٨) تُعرف بنفس هذه الاسماء وتوجد في الاجزائيات

وصفات كتاب برء الساعة

ج لهذه النباتات والعقاقير اسماء شائعة بين العلماء وضع لها الدكتور كيك فهرساً في آخر المقالة. فاذا طُلبت منهُ او من صيدلي ضليع احضرها. وللدكتور المذكور انتقاد على هذا الكتاب بالفرنسيَّة لتعريف غثّ الكتاب من سمينهِ

س وسأل اديب من كان الشاعر ديك الجن ومتى عاش

ديك الجن

ج هو ابو محمَّد عبد السلام بن رغبان ولد سنة ١٦١ هـ وتوفي سنة ٢٣٥ (٧٧٨ — ٨٥٠ م). امَّا اخبارهُ فتجدها مفصَّلة في وفيات الاعيان لابن خلكان (١: ٤٠٧: ١ من طبعة باريس. وفي مطبعة بولاق لسنة ١٢٩٩ ج ١: ٣٦٨)

ل. ش